# الفصل الرابع

## أ . . راد كليف براون

## وصياغة الالتقاء بين الوظيفة

## السوسيولوجيـــة والانثربوليوجية

المحتويـــات


أولا : رادكليف براون والحوار مع أفكار عصره .

ثانيا : البناء الاجتماعى ، محور قضايا النظرية والمنهج .

ثالثا : مقولات التصور الوظيفى عند رادكليف براون .

١ ـــ النسق وقضية التكامل البنائى .

٢ ـــ الاسهام الوظيفى طلب للوحدة الوظيفية الشاملة .

٣ ـــ البناء الاجتماعى بين قضايا التوازن والصراع .

٤ ـــ التغير الاجتماعى ، طبيعته ومداه .

## الفصل الرابع
## أ . راد كليف براون
## وصياغة الالتقاء بين الوظيفية السوسيولوجية والانثروبولوجية

### أولا : راد كليف براون والحوار مع أفكار عصره .

من الواضح أن راد كليف بروان احتل مكانة جوهرية فى اطار تطور البنائية الوظيفية ، اذ نجد انه يمثل حلقة جديدة لأسلوبين فى التفكير ،الاول هو التنظير الدوركيمى الذى طرح مجموعة من المقولات النظرية التى وان اعتمدت على بعض المعطيات الاثنوجرافية ، الا انها بدت وكأنها مجموعة من القضايا النظرية التى تحتاج الى الاختبار والفاعلية الامبيريقية أما الثانى فتمثل فى اسهامات مالينوفسكى البارزة فى اطار الدراسات الحقلية والميدانية . ومن ثم فقد كان منطقيا أن يظهر براون لكى يؤلف بين أسلوبين متناقضين لطريقة البحث والتفكير بين مالينوفسكى ذو التوجيه الميدانى من ناحية ودوركيم المنظر الفذ من ناحية أخرى . ومن هنا نجد ان تفكيره يعكس نفس طريقتى التفكير الى حد كبير فهو قد امتلك القدرة الدوركيمية على اثارة القضايا النظرية مع امكانية التأكد الواقعى والخلقى من فعاليتها بقدرة تناظر الكفاءة المالينوفسكية الى حد كبير . ومن ثم فيمكننا القول بأن راد كليف براون شكل الاطار الذى التقى فى نظامه تنظير دروكيم مع امبيريقية مالينوفسكى .

غير أنه بالاضافة الى ذلك توفرت مجموعة من الظروف التى ساعدت على هذا التصور الجديد . من هذه الظروف أنه وان نشأت الأنثروبولجيا بغرض عملى أساسا هر مساعدة هؤلاء المسئولين عن صياغة وتنفيذ سياسات حكم المستعمرات فى القارة الأفريقية (Radcliffe-ârown, 1960, P, 1) فان علينا أن نكسبها بعدا علميا فالعلم لايتوقف عند مستوى جمع البيانات ولكن عليه أن يقدم تفسيرا لها (Radcliffe - Brown . P, 39) . وهو مايعنى ابراز راد كليف براون للغرض العلمى الى جانب الغرض العملى بالاضافة الى ذلك ، فانه دعم الاعتقاد بأن المجتمع يعتبر نسقا طبيعيا يخضع لامكانية تطبيق المنهج العلمى بهدف الوصول الى القوانيين العلمية التى تحكم ظاهرات هذا النسق (Ibid, PP, 40 - 44) بلاضافة الى ذلك برز دور النظرية فى قيادة البحث الميدانى كظرف مساعد أخر على نضج الأنثربولوجيا فى هذه المرحلة . اذ اتخذ راد كليف براون من مفهوم البناء الاجتماعى تصورا نظريا يوجه البحث الميدانى . حيث يجب على

الباحث من الناحية التفسيرية البحث عن القوانين التى تحكمه
. (Harris, Op. cit, PP, 521 - 522)

وبالاضـــافة الى ذلك ظهرت مجموعة مـــن العوامل التى ساعدت على نضج الاتجاه الوظيفى على يد رادكليف براون فى هذه المرحلة . ويمثل عجز المدارس التطورية والانتشارية على تأسيس القوانين التى لها الصبغة العلمية الشاملة ، أحد العوامل التى دفعت الى ظهور البنائية الوظيفية التى تحاول الوصول الى القوانين التى تحكم المجتمع عن طريق استخدام المنهج العلمى. ويتمثل العامل الثانى فى طبيعة المعطيات التى توفرت عن الواقع البدائى ، التاريخية ، هذا بالاضافة الى أن الاعتماد على التاريخ الظنى ، فيه مغالطة فهى فى معظمها معطيات معاصرة ، لان هـــذه المجتمعات تفتقد الوثائـــق كبيرة ، اذ لا يذكر كبـــار السن سوى الوقائع التاريخية ذات الصلة بالحاضر ، ومن ثم فرضت الدراسة المتزامنة ظهور منهج جـــديد . ويتمثـــل العامل الثالث فى بساطة تكوين بناءات هذه المجتمعات ، حيث عناصرها البنائيـــة بسيطة تيسر ملاحظتها وادراك الارتباطات بينهما ، ومن ثم كان المدخل الوظيفى وسيلة هامة فى هـــــذه المرحلة ييسر للباحثين تنظيـــم وتصنيف وتحليل معطياتهم ، ومن ثم فقد أعانهم ذلك فى البحث عن العوامل المفسرة للظواهر الاجتماعية ، وهى تلك المتعلقة بخصائص أو ملامح أساسية فى البنـــاء الاجتماعى . وليس فى اى ظروف سابقة او خارجة عنه
. (Cohen, 1968, PP, 44 - 45)

بيد أن تطوير رادكليف براون لوجهة النظر الوظيفية استند أساسا الى حوار له مع التيارات الفكرية التى عايشها فى عصره ، وهى الاتجاهات الأنثرويولوجية التى سادت هذه المرحلة .

ويعتبر الاتجاه التطورى أول هذه الاتجاهات ، حيث نجد أن رادكليف براون قد رفض له أفكار كثيرة على المستوى المنهجى . فهـــو يؤكـــد أن الاتجاهات التطورية حاولت رسم تاريخ المجتمعات من خلال سلاسل تطورية، لا تعتمد على وثائق مكتوبة تيسر الوصول الى قوانين ثابتة ، وهو أمر ليس متاحا لكثير من الدول الأفريقية (Radcliffe - Brown, 1960, P, 2) .

اذ انه من خصائص العلم انه يحاول الوصول الى تعميمات مؤسسة على الاستقراء تحدد كيفية وأسباب وقوع احداث معينة ، ووفقا لأية قوانين تم ذلك (Radcliffe - Brown, P. 3) وهو مالم تحاوله الأنثروبولوجيا التطورية .

هذا الى جانب أن التطورية سقطت فى محظور التاريخ الظنى ، ومن ثم فقد كانوا غالبا ما يقدمون تفسيرات زائفة ، وربما متناقضة لذات الواقعة موضع الاهتمام . ويرى رادكليف براون أن هذه التأملات التطورية مضللة أكثر من كونها عديمة الفائدة . غير أن هذا لا يعنى أن رادكليف براون يرفض التفسيرات التاريخية (Radcliffe - Brown, 1952, P, 3)
وانما يريده مؤسسا على الوثائق التاريخية . بل اننا نجده غالبا ما يطالب بأهمية اجراء البحث التاريخى اذا توفرت الوثائق التى تتيح ذلك . وهويعزى عزوف البنائيين الوظيفين عن استخدام المنظورات التاريخية الى اقناعهم بالفائدة الضئيلة للمعطيات التاريخية التى يمكن الحصول عليها من المجتمعات البدائية (Harris, Op, cit, P, 524) وذلك لافتقاد الوثائق .
غير انه اذا توفرت الوثائق فعلا فلا مانع من اجراء الدراسات التاريخية . وهو ما فعلة رادكليف براون الذى درس تاريخيا نظام الزواج فى انجلترا . لأن هناك من الوثائق ما يسر له هذه الدراسة
(Radcliffe - Brown, 1960, PP, 43 - 47)

وفى النهاية يرى رادكليف براون أن التطورية سقطت فى ثلاثة أخطاء منهجية أساسية . الاول . هو انحراف التطوريين للبحث عن أصول الواقعة الاجتماعية بدلا من محاولة الكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الواقعة ، بغض النظر عن اعتبار المنهج الظنى مدخلا لتحديد هذا الأصل التاريخى . أما الثانى فيتمثل فى أن الفكر التطورى قد أفرز عديدا من النظريات المتناقضة لنفس الظاهرة من حيث أصلها أو تطورها . بحيث افتقدت هذه النظريات لأى اتساق منطقى فيما بينها (Ibid, P, 18)
أما الثالث فيتمثل فى تأسيسهم لتعميمات شاملة من وقائع فريدة كالاستناد الى البقايا فى القول بوجود نظم اجتماعية معينة فى مرحلة تاريخية سابقة من مراحل المجتمع .

يبقى بعد ذلك تأكيد رادكليف براون على امكانية الاستفادة من التاريخ. اذا توافرت الوثائق التى تجعله موضوعيا وعلميا لاظنيا تخمينيا . بل انه اكد مرارا أن الدراسة التاريخية يمكن أن تتكامل ولا تتعارض مع الدراسة المتزامنة ، بشرط أن تكون استقرائية تدرس الواقعة فى اطارها الاجتماعى والتاريخى . ولا تنتزعها لكى تصلها فى مراحل تاريخية متعاقبة .

أما فيما يتعلق بطبيعة الحوار بين رادكليف براون والانتشارية فنجد أنه يتفق معها فى نقدها للتطورية سواء من حيث طبيعة الاجراءات المنهجية التى تتبعها ، أو طريقتها التجزيئية التى تعمل على تتبع تطور أى من النظم الاجتماعية . هذا الى جانب رفض الانتشارية لفكرة أساسية لدى التطورية تتعلق بالتطور أو النمو التلقائى ، ونؤكد فى مواجهته فرضا انتشاريا شبيها يؤكد أولا على أن الدراسة منتشرة اكثر من كونها متطورة ومن ثم فعلينا بدلا من البحث عن قضايا التطور والنمو أن نركز اهتمامنا على انتشار الثقافة (Radcliffe - Brown, 1952, P, 12) من مجتمع لآخر ، وهو الانتشار الذى يخضع لعمليات عديدة من التعديل والتغيير رايفانز بريتشارد . مرجع سابق . ص ٨٧ ) . هذا بالاضافة الى أننا لو تتبعنا تطوريا تطور سمات ثقافية محددة ، فان علينا أن ندرك ان تطور الثقافات العالمية كان من مراكز حضارية محددة فى العالم .

بيد أننا نلاحظ أن البنائية الوظيفية نظرت الى الخلاف بين التطورية والانتشارية باعتبارها نزاعا عائليا . ومن ثم نجد أن رداكليف براون يرفض ويوافق على كثير من أفكارهما . فمنذ البداية نلاحظ موافقة الوظيفيين على امكانية أن تنتشر ثقافة من مجتمع لآخر . غير أنهم يرفضون المنهج الانتشارى الذى يتتبع سمات محددة ويحاول ردها الى اصول محددة . بل أن منهم من يرفض تلك الاهتمامات النظرية للانتشارية ويصفها بالسطحية (Cohen, 1968, P, 39) هذا الى جانب أنه فى مواجهة النمو الاجتماعى من الخارج بفعل الانتشار الثقافى تبنت الوظيفية الفرض التطورى الذى يؤكد على أن النمو والتغير تلقائيا بالنسبة للبناء الاجتماعى . هذا الى جانب رفض الوظيفية لمنهجية الانتشارية من حيث اتباعها التاريخى الظنى أيضا . هذا الى جانب

أنه برغم موافقة الوظيفية على امكانية أن ينشأ التغير بفعل الاحتكاك الثقافى ، يؤكد رادكليف براون أن التغيرات التى حدثت فى المجتمعات الأفريقية اقتصرت على نوع واحد من التغير ، الذى يتم بفعل سيطرة الغزاة الفاتحين ( رادكليف براون . ١٩٦٠ . ص ١٥ ) . هذا برغم تأكيد الاتجاه الوظيفى على أن التغير الذى يتم فى هذه الحالة لا يعنى تسليم المجتمع القديم بالسمة الثقافية الواردة اليه ، وانما قد ينشأ توتر وصراع بين المجتمع القديم والسمة الوافدة يؤدى الى استيعابها بعد اجراء تعديلات أساسية السمة أو فى البناء الاجتماعى .

ويعتبر الاتجاه السيكولوجى من الاتجاهات التى كان لرادكليف براون حوار واضح معه . وتتمثل الفكرة الرئيسية لهذا الاتجاه فى ايمانه بالطبيعة الانسانية الواحدة التى ترجع الى أصول سيكلوجية واحدة أيضا . ومن ثم فهم يفسرون كافة الظواهر الاجتماعية بالنظر الى هذه الأصول ( ايفانز ريتشارد . مرجع سابق . ص ٦٥ ) . ومادام الانسان — وفقا لما يؤكده هذا الاتجاه — يمتلك هذه الطبيعة السيكلوجية الواحدة ، فقد حاول البعض تفسير النظم الاجتماعية بالنظر الى علم النفس ، وخاصة علم النفس الترابطى . مثلما فعل تيلور ، وفريزر . ( نفس المرجع . ص ٧٥ ) .

وتتضح علاقة رادكليف براون بهذه النزعة الشاملة من خلال ارتباطها بسير جميس فريزر وأن كانت هذه النزعة موجودة ابتداء من هيوم وحتى مالينوفسكى (Radcliffe - Brown, 1952, P, 148)

ويعنى سير جيمس فريزر بهذه النزعة أن هناك مجموعة من العوامل الدائمة فى التكوين العقلى والعاطفى للبشر ، تؤدى الى ظهور مجموعة من الظواهر الثقافية الواسعة الانتشار (Cohen, 1968, P, 39)

وبذلك نجد أن سير جميس فريزر ينظر الى المعتقدات على أساس الوجود الاجتماعى ، وأن كافة الظواهر والنظم الاجتماعية ، بل وتحقيقه مجتمع مستقر التنظيم أمر ناتج عن هذه المعتقدات الأصلية
(Radcliffe - Brown, 1952, P, 152)

ويختلف رادكليف براون مع تحليلات الاتجاه السيكلوجى من خلال

تأكيده اختلاف وحدات التحليل بين علم النفس والأنثوبولوجيا فالسلوك الفردى هو وحدة علم النفس بينما تعالج الانثروبولوجية سلوك الجماعات وتجمعات الافراد فى علاقاتهم بجماعاتهم (Ibid, P, 17)
ثم يؤكد رادكليف براون ان الاتجاه السيكلوجى يعتبر أحد أسباب فشل الأنثروبولوجيا فى المرحلة السابقة ، لأنها استندت فى بعض تفسيراتها الى علم النفس . اذ تأكد ذلك من خلال الدراسات المسماة بسيكلوجيا الشعب فى المانيا . وكذا فى القدر الكبير من الأنثروبولوجيا الانجليزية التى حاولت تفسير العادات والعقائد السائدة عند البدائيين بالنظر الى علم النفس أعنى بالنظر الى : العمليات العقلية للفرد ، كتفسير الاعتقاد فى السحر بالنظر الى القوانين النفسية لترابط الأفكار (Ibid, PP, 18 - 19)

ومن ثم فمن الضرورى ادراك أنه برغم امكانية بعض أسباب السلوك أيضا الاجتماعى على المستوى الفردى ، أى بالنظر الى الدوافع السيكلوجية للبشر (Radcliffe - Brown, 1952, P, 142) كأن يحمل أيضا معه تميمة لبث الثقة فى نفسه (Ibid, P, 143) . أو يمتنع البدائى عن بعض الاعمال والسلوكيات لترقبة حالة ولادة طفل (Ibid, P, 147)
الا أن راد كليف براون يؤكد أن التفسير الظاهرى قد يقنع بهذه الوظائف النفسية لبعض الاعمال ، غير أننا ينبغى أن ندرك أنه الى جانب أن لهذه الاعمال وظائفها على المستوى الفردى فلها وظائفها على المستوى الاجتماعى الذى يعتبره فريزر عرضيا وناتجا — يكمن فى التفسير الرئيسى والنهائى لهذه الأعمال والظواهر وأنماط السلوك .

ويعتبر الفكر الوظيفى الاتجاه النظرى الأخير الذى تفاعل معه رادكليف براون . وفى هذا الصدد يعتبر هربرت سبنسر أحد الرواد الذين نقل عنهم رادكليف براون الكثير . وحسبما يذهب ايفانز بريتشارد نجد أن هربرت سبنسر كان من العلماء الذين وجهوا انتباه الانثروبولوجيا الى أهمية التحليل الوظيفى ( ايفانز بريتشارد . مرجع سابق . ص ٨٣ ) . وتعتبر المماثلة العضوية هى الاسهام الرئيسى الذى قدمه هربرت سبنسر . هذه المماثلة لها شقان . الشق الاول يتعلق بالفروض الأساسية للتطور ، حيث نجد ثلاثة فروض فى هذا الصدد

الأول : أن كلا من التطور العضوى والاجتماعى هى عمليات طبيعية تخضع للقانون الطبيعى . والثانى ان عملية التطور ، هى أساسا عملية للنمو المتشعب ، والثالث أن التطور فى العالم العضوى البيلوجى والاجتماعى يحكمه ميلٌ عام نحو تقدم التنظيم . وتطبيق ذلك فى الحياة الاجتماعية ، أن المجتمعات ذات البناء أو التنظيم الاكثر تعقيدا قد نمت تطورا عن الاشكال الاقل تعقد (Radcliffe - Brown, PP, 179 - 180) . أما الشق الثانى فيركز على الشكل المورفلوجى للبناء الذى يتكون من وحدات رئيسية هى الخلايا فى البناء العضوى والافراد فى البناء الاجتماعى . واذا كانت دروب النشاط فى البناء العضوى هى السلوك الملحوظ للخلايا ، فهى فى البناء الاجتماعى السلوك الملحوظ للجماعات والكائنات البشرية أو اذا كانت الوظائف فى الأول هى دور ضروب النشاط فى دعم البناء ، وهى الصلة بين نتائج النشاط وحاجات البنـاء ، فهى فى الثانى أيضا ضروب النشاط فى دعم البناء الاجتماعى وهى الصلة بين نتائج النشاط وحاجات البناء الاجتماعى ، (Rex, Op, cit, P, 63) .

ذلك يعنى أن رادكليف براون قد أقتنع بالماثلة العضوية كمنهج حيث يدافع عنها قائلا ( اننا باستخدامنا لمصطلحات مثل المورفلوجيا والفسيولوجيا فأنه يبدو لى أن أعود الى الماثلة بين المجتمع والكائن العضوى ، وهى الماثلة التى كانت سائدة من قبل ... وأنه اذا استخدمت المماثلات بصورة ملائمة، فانها سوف تصبح مساعدات هامة للتفكير العلمى . وهناك مماثلة هـامة وحقيقة بين البناء العضوى والاجتماعى ) (Radcliffe - Brown, 1952, P, 165)

وتأثرا بهربرت سبنسر يؤكد رادكليف براون على أن دراسة البناء الاجتماعى يجب أن ترتكز على ثلاثة مستويات أساسية . هى المورفلوجيا أو ترتيب الوحدات فى شكل بنائى ، والفسيولوجيا أو علاقات الاسهام الوظيفى المتبادل بين الأجزاء والكل . ثم العمليات التى تتغير بها الأبنية الاجتماعية وكيفية ظهور صور جديدة من الأبنية ( رادكليف براون ، ١٩٦٠ ، ص ١١ ).

غير أننا يمكنا أن نجمل تأثر رادكليف براون فى ناحيتين أساسيتـين الاولى طبيعة تصوره للبناء الاجتماعى وكيف يؤدى فاعليته والثانية قضية التغير الاجتماعى وفيما يتعلق بالقضية الاولى يؤكد رادكليف بارون اننا اذا

انتقلنا من الحيـــاة العضوية الى الحياة الاجتماعية فأننا يمـــكننا التعرف على وجود البناء الاجتماعى ، الذى يشكل البشر الأفراد ، وحداته الاساسية مرتبطين ببعضهم البعض بواسطة مجموعة محددة من العلاقات الاجتماعية فى كل متكامل ، ولاتتحطم استمرارية البناء بواسطة عملية التغيرات فى الوحوات وانما يحافظ على هذه الاستمرارية بواسطة عملية الحياة الاجتماعية التى تتكون من النشاطات والتفاعلات بين الوحدات الاســـاسية . وتتحدد الحياة الاجتماعية للمجتمع على أنها الأداء الوظيفى للبناء الاجتماعى ، فوظيفة اى تتكون من النشاطات والتفاعلات بين الوحدات الأساسية . وتتحدد الحياة يؤدية فى الحفاظ على الاستمرارية البنائية . (Nagel, 1960, PP, 521 - 522) .

أما فيما يتعلق بقضية التغير الاجتماعى فنجد أن رادكليف براون يتصور التغير الاجتماعى على غرار النمو العضوى . اذ نجده كثيرا ما يؤكد على التغير أو النمو التدريجى حينما يؤكد ان تاريخ أى نظام هو سلسلة من الحوادث الفريدة المتدة على فترة طويلة من الزمن من النمو التدريجى (Radcliffe - Brown, 1952, P, 34) بل انه يرى فى الزيادة الســـكانية ـــ متـــأثرا فى ذلك بهربرت سبنسر ـــ أحد عوامل التغير الاجتماعى
(Radcliffe - Brown, , PP, 181 - 182)

غير أنه برغم قبوله لعديد من أفكار هربرت سبنسر نجده يبدى اعتراضين اساسيين : الأول أنه اذا قبلنا أن المجتمع كالكائن العضوى ، فأى مجتمع فمن النادر وجود مجتمع منعزل ومن ثم فهل المجتمع المائل للكائن العضوى هو الامبراطورية البريطانية ، أو القرية الصينية أو جمهورية الصين بـــكل قراها ( رادكليف براون . ١٩٦٠ . ص ٦ ) . وقد أكد كلود ليفى شتراوس بأن حـــدود المجتمع تتحدد فى المنطقـــة التى يخف فيها كم وعمق العلاقات الاجتماعية بين جماعة وأخرى . وتبرز سمات التمايز البنائى بينها .

أما الاعتراض الثانى فيتمثل فى اختلاف الكائن العضوى عن المجتمع اذ يمكن الفصل بين مورفلوجيا وفسيولوجيا الكائن العضوى بينما نعجزا عن ذلك بالنسبة للبناء الاجتماعى ـــ ومن ثم فلا محل لوجود مورفلوجيا

اجتماعية وفسيولوجيا اجتماعية كل منها مستقلة عن الأخرى .

أما الاعتراض الثالث فيتمثل فى أن الكائن العضوى البيلوجي لايمكن أن يغير أو يعدل من نموذجه البنائى اثناء حياته ، فلا يمكن للخنزير أن يصبح وحيوته .

سيد قشطة بعد فترة من التغير ، بينما نجد أن البناء الاجتماعى يستطيع أن يغير نموذجة البنائى عدة مرات بدون اى انتهاك لاستمرارية وجودة وحيويته (Radcliffe - Brown, 1952, P, 181) .

ويعتبر اميل دوركيم من الرواد الوظيفيين الذين كان لهم تأثير واضح على رادكليف براون ، حيث اعتمد الأخير على التأليه الدوركيمى للتضامن الاجتماعى (Harris, Op, cit, P, 515) . الذ ى يترجمه رادكايف براون بمصطلحات عديدة كالوحدة والأنسجام والاتساق . وتؤكد هذه النظرة أن النسق الاجتماعى لدية نوع من الوحدة التى يمكن تحديدها بأنها الحالة التى تعمل فيها كل أجزاء النسق مع بعضها البعض بدرجة كافية من الانسجام والاتساق الداخلى بدون توليد أية صراعات لا يمكن تعريفها أو تنظيمها (Radcliffe - Brown. 1952, P, 181)

هذا بالاضافة الى انه مثل دوركيم يتخذ من البناء الاجتماعى الاساس الموضوعى لتحديد الاداء الوظيفى لنظم ووحدات هذا البناء . فنجده يعتقد بأن الاداء الوظيفى هو ذلك الاسهام الذى يؤديه النظام فى دعم البناء الاجتماعى (Harris, Op, cit, P, 515) . وهو بذلك يتوافق مع دوركيم بل ويؤكد على أن التحديد أو الصياغة المنظمة لمصطلح وظيفة كمفهوم يصلح للدراسة العلمية للمجتمع هو ذلك الذى يطرحه لأول مرة أميل دوركيم فى دراسته التى اجراها سنة ١٨٩٥ (Martindale: Op, cit, P, 456) حيث نجده يتناول البناء الاجتماعى بنفس مفهومه الدوركيمى على أنه دراسة الجماعات المنظمة على اساس التحديدات السياسية والقبلية والاقليمية وكذا العلاقات بين الجماعات . كل ذلك يكون اساس البناء الاجتماعى . (Harris, Op, cit, P, 517)

ثم يذهب متفقا مع دور كيم على أن البناء يعتبر المفهوم المفسر لكافة

السلوكيات التى تقع فى اطار المجتمع ، غير انه يختلف مع القول الدوركيمى فيما يتعلق بعلاقة الظواهر المرضية بالمجتمع ، قائلا اننا لايمكننا تحديد الاعتدال على انه الفوضى او سوء الاضطراب فى المناشط العادية للنموذج البنائى . (Radcliffe - Brown, 1952, P. 182),

بالاضافة الى ذلك نجد ان رادكليف براون قد تأثـــر بدوركيم فى بعض الجوانب المنهجية . فتحت تأثير دوركيم يعتبر ان الهدف الرئيسى للأنثروبولوجيا كعلم هو محاولة الوصول الى القوانين أو التعميمات التى تتعلق بالظواهـــر الاجتماعية التى يجب دراستها كظواهر العلوم الطبيعية لأنها جزء من الطبيعة وذلك باستخدام مناهج العلوم الطبيعية ( رادكليف براون . ١٩٦٠ ، ص٢).

هذا الى جانب تأثره بدوركيم فيما يتعلق بضرورة الاهتمام بالمنهـــج المقارن . ذلك المنهج الذى يجمع بين الدراسة المركزة لمجتمعات منفصلة ـــ أى الأنساق البنائية التى يمكن ملاحظتها فى مجتمعات محلية معينة ـــ مثلما فعل دوركيم بالنسبة للقبائل الاسترالية (Radcliffe - Brown, 1952, P, 165) الى جانب المقارنة المنهجية لعدد من المجتمعات او الأنساق البنائية لنماذج مختلفة ( رادكليف براون ؛ ١٩٦٠ ، ص ٨ ) .

أما بالنسبة لعلاقة رادكليف براون بمالينوفسكى فنجد حالة من عدم الاتفاق . اذ يؤكد الاول ( لقد وصفت فى أكثر من مناسبة بأننى انتمى الى ما يسمى بالمدرسة الوظيفية فى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، بل اننى رائد هذه المدرسة ولكن هذه المدرسة لاتوجد فى الحقيقة وانما هى اسطورة ابتدعها مالينوفسكى . لقد وضعت انا نفسى هذا العنوان الرائع للمدرسة الوظيفية فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية وألحقته باسمى بطريقة ما ، وكان ذلك الى حد كبير نتيجةلعدم شعورى بالمسئولية . وقد كان لعدم شعور مالينوفسكى بالمسئولية أيضا نتائج مؤسفة . لأنها اشاعت فوق الأنثروبولوجيا طبقة كثيفة من الضباب تتمثل فى تلك المناقشـــات التى دارت حول النزعة الوظيفيـــة من بل ان الحكم بأننى من الوظيفيين لايحمل اى معنى محدد ( رادكليف براون . ١٩٦٠ . ص ٢٢١ ) .

غير أننا برغم ذلك نلاحظ بعض الاتفاقات والاختلافات بين العالمين. حول بعض القضايا .

وتدور أولى قضايا الاتفاق حول موقفهما من التاريخ الظنى فكلاهما يؤكد على عدم الاستعانة بالمنهج التاريخى فى دراسة المجتمعات البدائية نظرا لعدم توفر الوثائق واللجوء الى الظن والتخمين . بل أننا نجد أن مالينوفسكى يرفض كلية الدراسة التاريخية أو المدخل التاريخى ، ويركز — متفقا فى ذلك مع رادكليف براون — على الدراسة المتزامنة التى تصبح واجبة فى حالة غياب الدليل التاريخى ، ومن ثم التركيز على الظواهر الموجودة كنمط دائم يتكون من الأجزاء المتداخلة (Gohen, Op, cit, P, 44) .

وتدور قضية الاتفاق الثانية حول رفض تتبع النزعة الانتشارية — لأصول ومسارات السمات الثقافية . لأن السمات قد تنتقل من مجتمع لآخر . الا انها بمجرد هجرتها من مجتمع لاخر يتم استيعابها فى اطارة وربما خلع وظيفة بنائية جديدة عليها .

وتدور قضية الاتفاق الثانية حول رفض تتبع النزعة الانتشارية — الشاملة ، حيث يؤكد مالينوفسكى أن كل سمة فى المجتمع تؤدى وظيفة ، بينما يذهب رادكليف براون الى أن هناك من العناصر ، مالاتكون له وظيفة محددة او يؤدى وظيفة لا تنسجم مع الكل البنائى .

وتدور قضية الخلاف الثانية حول اتجاه الأداء الوظيفى فبينما يرى مالينوفسكى أن اتجاه الأداء الوظيفى يذهب نحو اشباع الحاجات الفردية للانسان ، نجد رادكليف بروان على العكس من ذلك يذهب الى أن الاداء الوظيفى يتجه فى العادة نحو اشباع حاجات اجتماعية لدى البناء الاجتماعى اساسا (Radcliffe - Brown, 1960, P, 82)

**ثانيا : البناء الاجتماعى : محور قضايا النظرية والمنهج :**

نعلم ان التحدى الذى قام ضد تطورية القرن التاسع عشر اثاره اتجاهان الاول الاتجاه الانتشارى . والثانى كان الاتجاه الوظيفى الذى

اهتم بالدراسة المتزامنة لواقع المجتمعات البدائية ، وأيضا بالتحليل العميق للبيانات التى يمكن الحصول عليها نتيجة القيام بمثل هذه الدراسات ، ولقد كان المنهج الذى تحلل على اساسة هذه الدراسات منهج العلاقات الوظيفية المتزامنة ، حيث كان قصد الوظيفيين من استخدام هذا المنهج هو محاولتهم الابقاء على ما بقى من النزعة العلمية التى سادت القرن التاسع عشر وتخليص انفسهم من البحث عن الاجراءات التطورية والتاريخية (Harris, Op. cit, P, 514) يعنى ذلك اهتمام النظرية الوظيفية باستخدام المنهج العلمى فى الدراسة ، هذا المنهج يبدأ من استخدام النظرية الموجهة للوصف والتحليل والتفسير ، وكذا المنهج المستخدم فى الدراسة، بحيث تؤدى هذه الاستخدامات الى اكتشاف مجموعة من القوانين التى يمكن ان يقال انها تحكم الظواهر الاجتماعية .

ويتبثق اهتمام الانثروبولوجيين الانجليز وبخاصة راد كليف براون ، باستخدام المنهج العلمى لانهم يتصورن المجتمع على انه نسق طبيعى ينشأ عن الطبيعة البشرية ذاتها وليس من العقد الاجتماعى . واعتبار المجتمع نسقا طبيعيا جعلهم يطرحون امكانية استخدام تكنيكات العلم الطبيعى فى الدراسة وخاصة استخدام المنهج التجريبى الاستقرائى ( ايفانز بريتشارد . مرجع سابقة ص ٤٧ ) ، المستخدم فى العلوم الطبيعية مع اجراء التعديلات الملائمة لامكانية تطبيقة لظاهرات المجتمع .

ونتاجا لذلك كان علينا ان نتوقع تأكيدا على معنى خاص للتناول العلمى واهتماما بقضايا العلم والنظرية والمنهج عند البنائين الوظيفيين ، وفيما يتعلق بموقف الاتجاه الوظيفى من العلم ، وخاصة فى تلك المرحلة التى قادها رادكليف براون نؤكد اعتبارها الانثروبولوجيا الاجتماعية على أنها فرع من العلم الطبيعى ، والعلم عندهم متراكم فكل عالم يبدأ من النقطة التى انتهى اليها سابقوه ، ثم يكتشف مسائل يعتقد انها هامة ، ثم يحاول عن طريق الملاحظة والاستدلال ان ينمى النظرية . ويقوم التعاون بين العلماء لانشغالهم بمشكلات بعينها أو بمشكلات متصلة بعضها ببعض . ومثل هذا التعاون لايؤدى الى قيام مدارس على غرار الفلسفة والرسم والتصوير ، اذ ليس ثمة مكان للايمان أو المروق فى العلم . كما انه ليس

ثمة ما هو أشد ايذاء للعلم من محاولة اقامة نـــوع من التشيع الاعمى للنظريات . وكل ما يستطيع الاستاذ ان يفعله هـــو ان يساعد تلميذه فى تعلم كيف يفهم المنهج العلمى وكيف يستخدمة ، فليس من واجبه انشـــاء الاتباع . ( رادكليف براون . ١٩٦٠ . ص ٢ ) .

والعلم فى رأى راد كليف براون هو البحث فى بناء الكون كمـــا تظهره لنـا الحواس وينقسم العـلم الى مجموعة من العلوم المنفصلة التى يعالج كل منها فئة معينة أو نوعا معينا من الابنية بقصد اكتشاف الخصائص المميزة لكل هذه الابنية المندرجة تحت هذا النوع . من هذه العلوم نجـد الطبيعة الذرية والكيمياء وعلم التبلور والكيمياء الغروية والتشريح وعـلم وظائف الاعضاء . ثم يؤكد انه على أساس ذلك يعتقد ان هناك ثمة مكانا لفرع آخر من العلم الطبيعى يوجه جهدة الى اكتشاف الخصائص العامة لتلك الابنية الاجتماعية التى تتألف من الكائنات الانسانية ( نفس المرجـع ، ص ٣ ) .

وما يميز العلم عـن الانساق الادراكية الاخرى هـــو اهتمامـــه باستخدام المنهج العلمى ، الذى نرى أنه يتكون من تواجد النظرية التى تشتق منها فروض الملاحظـة وكذا تواجـد منهـج اختبار كفاءة أو زيف هذه الفروض ، ثـــم ادوات الكشف المنهجية . بذلك فان الرؤية العلمية أو المنهجية ، لا بد وان تركز الاهتمام على قضايا النظرية وقضايا المنهج ثم التناول للظواهر بالدراسة بالنظر الى قضايا النظرية والمنهج .

وفيما يتعلق بالنظرية فاننا نستطيع ان نؤكد ان راد كليف براون كان اكثر البنائيين الوظيفيين ـــ حتى عصره ـــ ادراكـــا لاهميـة النظرية والمنهج . فنحن نعرف ان راد كليف براون كان من أول الباحثين الذين اكدوا على ضرورة عـدم انفصال الباحث المنظر عن الباحث القائم بالعـــمل الميدانى ، وكان ذلك رفضا للمناهج التطورية والانتشارية فى الدراسة التى كانت تعتمد فى تأكيد تصوراتهـا النظرية على البيانات والمادة والحقائق التى كان يجمعها الاشخاص العاديون فيؤسسون عليهـا نظرياتهم ، ولم يخطر ببالهم قط أن ثمة ما يدعو الى أن يقوموا هم أنفسهم بدراســة هذه

الشعوب البدائية ... الا انه بعد ان تبين للعلمـــاء ان الوحدة تفقد معناها اذا انتزعت من سياقها ، ادركوا اهمية تناول كل نواحى الحيـاة الاجتماعية عند البدائيين ، كما ادركوا ان الانثروبولوجيين الاجتماعيـين المتفرغين هم وحدهم الذين يستطيعون القيام بمثل هذه الدراسات نظرا لانهم يعرفون مشكلات العلم والنظرية ونوع المعلومات التى تلزم كل تلك المشكلات . ونتيجة للاهتمام الوظيفى بالترابط وبفكرة النسق ، وتأكيدة على ضرورة الدراسة المنهجية للحالة الاجتماعية الحاليه لدى البدائيين لـم يؤد ذلك ــ كما يؤكـد ايفانز ريتشارد ــ الى فصل الانثروبولوجيـا الاجتماعية عن الاثنولوجيا فحسب ، بل ساعد أيضـا فى تضييق الهوة بين الدراسة النظرية للنظم والدراسة التى تعتمد فى المحـل الاول على ملاحظة الحياة الاجتماعية عند هؤلاء البدائيين ، بل ادى الى عـدم الفصل بين الشخص الذى يقوم بالتفكير النظرى وذلك الذى يقوم بالملاحظة . فقـد اتحد الاثنان معـا فى النهاية فى الانثروبولوجيا الوظيفية ، وادى ذلـك الى ظهور الانثروبولوجيا بالمعنى الحديث كعلم متميز عن غيره من العلوم. تفحص فيـه موضوعـات علم الاجتماع العامة النظرية ، وتختبر عـن طريق دراسة المجتمعات البدائيـة ( ايفانز بريتشارد . مرجـع سابق ص ص ٨٨ ــ ٩١ ) .

ونتيجة لهذا الادراك لدور النظرية نجد راد كليف براون يؤكـد انها نسق التفسير الملائم لفهم فئة معينة من الظواهر ، وهى تتكون من المفاهيم التحليلية ، التى يمكن توضيحها بالنظر الى الحقيقة الواقعية والتى يجب أن يسود بينها نوع من الترابط المنطقى .
(Radcliffe - Brown, 1952, P, 1)

ويرى راد كليف براون ان معظم الجهـد العلمى هـو اساسا جهـد متعلق بالنظرية أو بتطوير هذه النظرية واختبارها . فهو يؤكد أن هنـاك وجهين للعلم أو لجهود العلماء يتكون الاول فى محاولتهم لابتكار أو بنـاء نظرية عامة عن فئة معينة من الظواهر ، حيث يجب على العالم اثناء هذه المرحلة ان يعتبر اية ظاهرة تستحق الاهتمام فقط لكونها جزءا من المـادة التى يمكن استخدامها فى صياغة أو اختبار فروضه ، وهذا الجانب يعرف

عادة بالعلم النظرى الخالص . أما الثانى فهو ما يعرف بالعلم التطبيقى وهو يهتم أساسا بتطبيق المعرفة النظرية التى يمكن صياغتهـــا من أجل فهم وتفسير ظواهر معينـــــــة (Radcliffe - Brown & other, 1960, P, 2) هذا لايعنى انفصال هذين الجانبين للجهد العلمى ، وانما يعنى انهمـــــا وان كانا منفصلين الا أنهما فى حالة قوية من التساند والاعتماد المتبـــادل ، وانهما فى أية عمل ينفذان أو يعجزان عادة بشـــــكل معى (Ibid, P, 3) الا ان هذا الايمان بدور النظرية لايجرف رادكليف براون الى موقف مثالى وانمـــــا يظل محافظا على موقفه داخل النطاق الوضعى لعلم الاجتـــاع ، حينما يؤمن بأن النظرية دائما ما تخضع للتعديلات التى تفرضها الدراسات المستمرة للواقع ، فهويؤكد ان اية نظرية علمية ، هى وقتية ، وهى معرضة للتعديل فى ضوء ابحاث المستقبل ، وهى وان كانت قد قدمت نفسها كمنهج مفيد فى البحث الا اننا قد نحتاج الى عديد من الابحـــاث والدراســـات المنتظمة . الى تسهم فى دعم وتشييد اكثر قدرة للنظرية (Radcliffe-Brown 1952, P, 176) انه فى موضع آخر يؤكـــد أننا لكى ننقح أو نفحص نظريتنا فاننا يجب أن نعيد تطبيقها على كثير من المجتمعات (Ibid P, 160).

وفيما يتعلق بالمنهج فاننا نجد ان راد كليف براون يؤمن بالمنهـــج الاستقرائى وهو كما هو معروف منهج العلوم الطبيعية ، وهو بعد أن يؤكد اختيارة ليكون الاستقراء منهج العلم الاجتماعى يؤكد أن المسلمة الرئيسة لهذا المنهج ، هى خضوع كافة الظواهر للقانون الطبيعى وانه من الممكن نتاجا لتطبيق مناهج منطقية معينة أن نكشف أو نبرهن على تواجد قوانينا عامة معينة اعنى قضايا او صياغات ذات درجة اكبر أو اقل من العمومية، حيث يلائم كل منها مجموعة معينة من الحقائق والواقع . فجوهر الاستقراء هو التعميم ، فحقيقة معينة تفسر بأن نوضح بأنها مثال لقاعدة عامة ، مثال ذلك ان سقوط التفاحة من على الشجرة وحركات الكواكب حول الشمس تفسر بأنها أمثلة مختلفة لقانون الجاذبية . وهو يؤكد أن العلم الاستقرائى قد تناول كافة ظواهر الطبيعة المختلفة ، النطاق تلو الاخر ، فلقد تـــم تناول حركات النجوم والكواكب والظواهر الفيزيقية للعالم حولنا ، ومن ثـــم ردود الفعل الكيمائية للمواد التى يتكون منها عالمنا ، ثـــم تأتـــى

العلوم البيلوجية التى تهدف الى اكتشاف القوانين العامة التى تحكم استجابات أو ردود أفعال المادة الحية ، وفى القرن الاخير طبق نفس المنهج الاستقرائى لعمليات العقل البشرى ، وبقى بالنسبة لعصرنا ان نطبق هذه المناهج لدراسة ظواهر الثقافة والحضارة أو القانون ، والاخلاق، والفن واللغة ، والنظم الاجتماعية بانواعها المختلفة (Radcliffe - Brown, 1958, PP, 6 - 7) وهو فى هذا الموقف المنهجى يظل محافظا على الالتزام بالرؤيا الوضعية التى تؤكد على ضرورة دراسة ظواهر الاجتماع باستخدام مناهج العلوم الطبيعية بل أن اقراره بأن ظواهر الاجتماع تنطبق عليها نفس القوانين والمناهج التى انطبقت أو لاءمت ظواهر الطبيعة الاخرى يعود بنا الى رؤية سبنسرية واضحة اذ يؤكد ضمنيا الخطوط النظرية والمنهجية التى نرى عند كافة البنائيين التزاما بها .

فاذا شكل التجريب والاستقراء اساس المنهج العلمى ، فان استخدامة ممكن من وجهة نظر راد كليف براون عن طريق استخدام طريقتين منهجيتين نفصلهما تعسفيا وهما ، اسلوب الملاحظة ، والمقارنة ، فعند دراسته الدين وعلاقته بالمجتمع أكد اننا لابد وان نستخدم المنهج التجريبى بأن نتناول عددا من الديانات فى علاقاتها ببناءاتها الاجتماعية (Radcliffe - Brown 1952, P, 154) ومن ثم سوف نيسر الملاحظة المتعمقة لكل منهاوبالتالى المقارنة بينها عن طريق رؤية التماثلات والاختلافات بينها، [illegible]

فتأكيد العلماء الوظيفيين على الملاحظة والمقارنة ، وايمانهم بامكانية استخدام المنهج العلمى ينبثق اساسا من افتراضهم ان المجتمعات انساق طبيعية ينبغى دراستها بنفس الطرق التى يتبعها العلماء الطبيعيون ، ما أمكن تطبيق هذه الطرق ( ايفانز بريتشارد . مرجع سابق ، ص ٩٤ ) . ولقد اكد راد كليف براون على اربعة خطوات فى المنهج العلمى ..وهى تبدأ بالملاحظة ، والتصنيف ، والمقارنة ، والتحليل . وسنحاول العرض الموجز لكل منها .

وتأكيد رادكليف براون على استخدام الملاحظة ، بقدر ما يتيح

امكانية اجراء المقارنة ، فهو يؤكد ان المنهج الذى ينبغى اتباعة .. يجب ان يجمع بين الدراسة المركزة لمجتمعات منفصلة ــ اقصد دراسة الانساق البنائية التى يمكن ملاحظتها فى مجتمعات محلية معينة ــ ثم المقارنة المنهجية لعدد من المجتمعات أو الانساق البنائية لنماذج مختلفة ( راد كليف براون . ١٩٦٠ . ص ٨ ) ولا جراء هذه الملاحظة يجب على الباحث ان يسجل السمات السائدة ، بل عليه ايضا أن يجرد السلوك البنائى المنمط حاليا من فرديانة الجزئية ، فاذا لاحظ الباحث فى احدى القبائل الاسترالية عدة حالات لنوع السلوك القائم بين الخال وابن الأخت فاننى افعل هذا لكى اسجل بكل دقة الصورة العامة السوية لهذه العلاقة مجردة عن كل تغيرات الأمثلة الجزئية ( نفس المرجع ص ٥ ) وبذلك فسوف تساعدنا الملاحظة الحقة او الجادة على تحديد السلوك المثالى والمتوقع ، وان هذه الملاحظة سوف تساعدنا ايضا على اكتشاف نطاق الامتثال للقواعد ونوع وقدر الانحراف عنها . بل اننا نستطيع ايضا ان نلاحظ ــ ويجب ان نفعل ذلك ــ ردود فعل الاشخاص الاخرى نحو سلوك شخص بعينة او تعبيراتهم بالموافقة او الرفض (Radcliffe - Brown, 1960, P, 10) والملاحظة قد تتناول ما هو ليس واقعياحينما تركز على ما هو موثق ومكتوب ، فهو يؤكد ان ما نسمية بالاتجاه هو شىء يمكن ان يكشف بالملاحظة . اذا أن الاعتراض فى بعض الأمثلة على نوع معين من الازواج يأخذ شكله المحدد تماما فى نسق القانون (Ibid, P, 62) الا اننا فى دراسة أو ملاحظة اى وحدة يجب ان يتم ذلك فى اطار النسق او البناء الذى يحتويها ، نحاول معرفة الدور التى تلعبة ومكانتها فى شبكة العلاقات او النظم التى هى جزء منها . (Radcliffe - Brown, 1952, PP, 110 - 111)

الا انه يجب التأكيد على الرابطة العضوية والمنهجية بين الملاحظة كأجراء ميدانى والنظرية التى توجه فروضها هذه الملاحظة فهو يؤكد ان الحقائق يجب ان تلاحظ ، ويجب ان تقام الفروض التى تبدو على انها قد تفسر هذه الحقائق ، وتكون هذه الخطوة الاولى من الاستقراء ، أما الخطوة الثانية فهو اننا نرجع مرة اخرى بل وأكثر من مرة الى اجراء الملاحظة من اجل الاختبار والتحقق من صدق هذه الفروض . وقد نجد أن فرضا فاعلا يجب أن يعدل او يفرض ، أو يصاغ فرض جديد ، وتستمر

هذه العملية حتى نتمكن من صياغة فروضنا كنظرية ذات درجـــــة عالية من الاحتمالية (Radcliffe - Brown, 1958, P, 34) .

اما العنصر المنهجى الثانى فهو التصنيف ، والتصنيف عنـــده ، يقصد بـــه صياغة نماذج بنائية اشبه بالنماذج المثالية . فهو يؤكـد انه لكى نقوم مورفلوجيا مقارنة للمجتمعات فلابـد من ان نحاول الوصـرل الى نوع ما من تصنيف نماذج الانساق البنائية ، وهو عمل شاق ومعقـد وينبغى الا يغرب عن بالنا ان الكيمياء والبيلوجيا لـم يصبحا علمـين كاملى الصياغة الا بعد ان امكن اجراء تقدم كبير فى مجال التصنيف المنهجى للأشياء التى يعالجانها ، وهى العناصر فى حالة الكيمياء ، والبناتـات والحيوانات فى حالة البيلوجيا ( راد كليف براون ١٩٦٠٠ . ص ٨ ) وهو لا يتوقف عنـد التنبية على اهمية التصنيف وصياغة النماذج المثالية بـل نجده يتجاوز ذلك فيصوغ لنا اربعة نماذج للانساق القرابيـــة ( وهى نماذج مثالية ترتكز على نظائر امبيريقية ، ويؤكد ان صياغة هذه النمـاذج يوفر لنا اطار العمل الذى نبنى بداخله تنميطا أو نمذجة لانسـاق حـق الاب ، وحق الام ، ثم انساق القرابة من ناحية الام Cognatic ثم انساق البدنة المزدوجة (Radcliffe - Brown, 1960, P, 79)

وبصياغة النماذج تصبح المقارنة ممكنة الاجراء وواجبة . فهـو يؤكد ان استخدام المنهج المقارن أمر لاغناء عنه ، فدراســة احـد المجتمعات المحلية قد تزودنا بالمادة اللازمة للدراسة المقارنه ، أو قد تنتج لنـا فرصة لصـوغ الفروض التى تحتاج بعد ذلك الاختبار بالاشـارة الى مجتمعات اخرى ، ولكن هذه الدراسة لا يمكن ان تعطينا نتائـج مبرهنـا عليها (Ibid, P, 82) ثم يشير الى ان الانساق الاجتماعية يجب ان تقارن حتى يمكن تحديد الاختلافات ، ووراء هذه الاختلافات فانه يمكن اكتشاف التشابهات أو التماثلات العامة والاكثر اساسية . بل ان احد اهـداف المقارنة هو ان تمدنا بأطر أو نهج للتصنيف الذى بدونه لن يـــكون هناك علم (Radcliffe - Brown, 1952, PP, 111 - 114) بل اننا نجد ان رادكليف براون يستخدم المنهج المقارن فى دراسة وظيفة علاقات التنكيت فى اكثر من اكثر من شريحة ثم مقارنتهـا بكافة العلاقات الاخـرى داخـل النسق

أو السائدة فى انســـاق اخـــرى (Radcliffe - Brown, 1960, P, 2) .

تبقى بعد ذلك امكانية التحليل ، وهو يعنى بـــه ذلك المدخل الـــذى يطلق على شىء يعد كلا أو تركيبا فى حد ذاته ، فهو يؤكـــد انه على اساسة نفصل أو نعزل فى الواقع أو الفكر مكونات ذلك الكل المتشابك ، ومن ثـــم نكتشف العلاقات التى بين هذه المكونات كل بالآخر داخل هذا الـــكل ، ثم يؤكد اننا لكى نصل الى فهم للانساق القرابية فأننا يجب أن نستخـــدم المقارنة والتحليل مرتبطين وذلك بمقارنة كثير من الانساق المختلفـــة كل بالآخر . هذا بالاضافة الى اخضاع كل نسق بمفرده الى نـــوع من التحليل المنظم ( رادكليف براون ١٩٦٠٠ . ص ٣ ) .

بعد ان عرضنا فى الفقرة السابقة للموقف النظرى والمنهجى لرادكليف براون نعرض فى هذه الفقرة البناء الاجتمـــــاعى ومكوناته ومظاهـــرة المختلفة ، كنظرية واضحة ، ومحللة ، ومفسرة للواقع ، تبناها فى دراسته.

فاذا ما حاولنا التعرف على مكونات البناء الاجتماعى من وجهـــة نظر راد كليف براون لراياه يتناول مكوناته على غرار علاقة البناء ومكوناته فى البيلوجيا والكيمياء فهو يرى مبدأ ان للابنية الاجتماعية وجودا حقيقيا مثل الوجود الفردى ، وبهذا فهو يـــكرر امامنـــا نفس الصور أو التأكيد الدوركيمى ، ثم يرى ان الظاهرات الاجتماعية بشكل ما تشـــكل مكونات متضمنة فى هذه الابنية أو ناتجة عنها وأن هذه الظاهرات ليست نـاجـــا أوتوماتيكيا لطبيعة الافراد بقدر ماهى نتاج للبناء الاجتماعى الذى يتحد هؤلاء الافراد عن طريقة .

اذن فالافراد بوصفهم اشخاص هم الوحدات الاساسية فى البنـــــاء الاجتماعى ونقول بوصفهم اشخاصا وليسوا بكونهم افراد ذلك لان الشخص عبارة عن مجموعة من العلاقات الاجتماعية ... ثم يؤكد اننا لانستطيع ان ندرس الاشخاص الا فى حدود البناء الاجتماعى ، كما اننا لانستطيع ان ندرس البناء الاجتماعى الا بالاشارة الى الاشخاص الذين هـــم وحـــــدات فى ذلك البناء ( أحمد أبو زيد . ١٩٦٥ . ص ص ٢٤ ــ ٢٥ ) .

والى جانب الاشخاص كوحدات رئيسيـــة ، نرى أن رادكليف براون يعتبر العلاقات الاجتماعية التى تقوم بين شخص وآخر جزءا من البنـــاء الاجتماعى . فالبناء الاجتماعى لاى مجتمع مثلا يتكون من عـــدد من تلك العلاقات الثنائية كالعلاقة بـــين الاب والابن ، أو بين الخـــال وابن الاخت ويقوم البناء الاجتماعى كله عند القبائل الاسترالية على شبكة من مثل هذه العلاقات الثنائية التى تنشأ عن طريق روابط المصاهرة .

والى جانب ان هؤلاء الاشخـــاص يقفون فى علاقات محـــددة كل تجاه الآخر فأنهم بلا شك ينتظمون فى ترتيب منظم يؤدون فيه أدوارهم ، ومن ثم نجد رادكليف براون يؤكد أنه يدخل تحت مفهوم البناء الاجتماعى ذلك التمايز القائم بـــين الافراد والطبقات بحسب ادوارهم الاجتماعية فاختلاف المركز الاجتماعى بين الرجل والمرأة او بين الرئيس والعامة او بين صاحب العمل والعمال والموظفين أمر لايقل أهمية فى تحديد العلاقات الاجتماعيـــة من اختلاف العشيرة أو الدولة التى ينتمى المرء اليهـــا ( رادكليف براون ١٩٦٠٠ . ص ص ٤ — ٥ )

وهو يطرح الى جانب هذا التحديد للمكونات الداخلية للبناء الاجتماعى تحديدا أدائيا لهذا المصطلح الذى يشغل لب أو محور الحركة البنـــائية الوظيفية كلها ، اذ يكد ان دراسة الجماعة ، وبخاصة تلك المنظمة على اساس التحديدات الاقليمية والقرابية والسياسية والعلاقات الموجودة بين هذه الجماعات يشكل محور دارسة الظواهر البنائية والاجتماعية . وبمعنى مختلف الى حد ما ان كل المراكز أو المكانات الاجتماعية المتباينة الناتجـــة عن اعتبار العضوية فى التجمعات الاجتماعية ، كلها تشكل أجزاء فى البناء الاجتماعى . (Radcliffe - Brown, 1952, P, 193)

ويحاول هنا مارفن هاريس ان يبحث عن مقارنة بين الماركسية ووجهة نظر رادكليف براون فيما يتعلق بالبناء الاجتمـــاعى ، ببحث علاقة البنـــاء الاجتماعى بالاجزاء الاخرى لنسق الاجتماثقافى ، فهو يؤكـــد أنه وفقـــا لراد كليفبراون فأن هناك ثلاثة جوانب تكيفية موجهـــة ومنفصلة للنسق الاجتماعى اكلى ويعد البناء الاجتماعى وهو الترتيب والتنظيم الذى يدعـــم

بواسطة حياة اجتماعية منظمة أحد هذه الجوانب الثلاثة أما الجانبان الاخران فهم الجانب الايكلوجى والاسلوب الذى يتكيف به النسق والبيئة الطبيعية ، ثم الجانب الثقافى وهو عبارة عن مجموعة الميكانيزمات التى يكتسب بها الفرد العادات والخصائص العقلية التى تجعله أكثر قدرة للاشتراك فى الحياة الاجتماعية • ثم يحاول هاريس أن يعبر من ذلك الى المقارنة التى ينشدها فيؤكد أننا لو استبدلنا مفهوم ( ايدلوجيا ) بالمقولة التى سماها رادكليف براون تعسفيا بالثقافة لوجدنا ذلك التقسيم الثلاثى الماركسى للانساق الاجتماثقافية الى الظواهر التكنواقتصادية ، والاجتماعية البنائية ، والايدلوجيه ، أما ماهو اكثر اهمية فى هذا الترتيب فهو انفصال البناء الاجتماعى عى التركيبات التكنو ـ بيئية والتكنو ـ اقتصادية .
(Harris, Op, cit. PP, 517 - 5181)

الا ان الفارق هام ولاشك ، فنحن اذا وافقا على هذا التقسيم الثلاثى الذى صاغه هاريس لجوانب النسق الاجتماعى وهى البناء الاجتماعى والجانب الايكولوجى والثقافى ، فاننا نجد الفارق هام بين وجهة نظر رادكليف براون ورادكليف براون بل الوظيفية ، ووجهة النظر الماركسية فبالنسبة للاخيرة نجد أن الوظيفة الرئيسية للبناء الاجتماعى هو دعم التكيفات أو التعديلات الاقتصادية والايكلوجية . اما بالنسبة للنزعة الوظفية البنائية ، فان البناء الاجتماعى تكون له اولوية الدعم والتحليل ، ويصبح من المشروع فقط أن نبحث ـ وفقا لوجهة النظر هذه ـ عن كيف ينتج النسق الاقتصادى أو كيف يسهم فى دعم البناء الاجتماعى ، وليس كيف أن بناء اجتماعيا معينا ينتج عن أو يسهم فى دعم مجموعة معينة من التكيفات أو التعديلات التكنواقتصادية ولقد يكون شاهدا على ذلك ما يقوله رادكليف براون فيما يتعلق بالعلاقة بين هذه المكونات ، ان الجهاز الاقتصادى للمجتمع يظهر فى ثوب جديد تماما اذا مادرسناه فى علاقته بالبناء الاجتماعى . فتبادل السلع والخدمات انما يعتمد على ، وينتج عن ، وفى نفس الوقت هو وسيلة لدعم بناء اجتماعى معين ، أو شبكة معينة من العلاقات بين الاشخاص وتجمعات الاشخاص . فظاهرة البوتلاش السائدة عند هنود شمال غرب أمريكا تبدو بالنسبة لعلماء اقتصاد وسياسة كندا على انها ببساطة غباء وضياع ومن ثم فقد تم تحريمها الا إنها بالنسبة للباحث الانثروبولوجى جهاز لدعم البناء الاجتماعى للبدنات

والبطون والعشائر ، حيث يرتبط بها ترتيب للمراتب المحددة بواسطة الامتيازات (Radcliffe - Brown, 1952, P, 198)

والى جانب التشريح الداخلى لمكونات البناء الاجتماعى ، وكذا التقسيم الى مستويات اذا ما نظرنا للبناء على انه احد جوانب النسق الكلى . فاننا نجد أن رادكليف براون فى نظرته الى البناء الاجتماعى كحقيقة لها ارتباط بمقوله الزمن ، يورد تقسيما اخر لمكونات بنائية وهو على ما يبدو يرث هذا التقسيم عن أميل دوركيم بل وعن منتسكيو الذى سبقه فى التمييز بين طبيعة المجتمع ومبدأ المجتمع فطبيعة المجتمع هى ما يجعل المجتمع يبدو على ما هو عليه ، أما مبدأ المجتمع فطبيعة المجتمع فهو مايجعل المجتمع يعمل) (ايفانزبريتشارد مرجع سابق ٠ ص٤٦) اذ نجد أن رادكليف براون يقسم البناء الاجتماعى الى الجانب المورفلوجى ، م الجانب الفسيولوجى ، ثم النمو او التطور ، وهو يقصد بالمورفلجيا شكل البناءات الاجتماعية ونواعها بينما ان الفسيولوجيا هى تلك التى تتعلق بقضايا أداء هذه البناءات لوظيفتها ، اما قضايا التطور والنمو فهى تلك التى تتعلق بانبثاق أو تولد لنموذج جديد من البناء الاجتماعى (Radcliffe - Brown, 1952, P, 180) وهو بذلك يود ان يصوغ مفارقة بين المظاهر الاستاتيكية والدينامية للبناء أو النسق وكذا حالات التغير أو التطور فيه .

وانطلاقا من هذه التحديدات العديدة لمكونات البناء الاجتماعى نجده يوجزها ، بقوله ان مكونات الابنية الاجتماعية هى الكائنات البشرية وان البناء ذاته تنظيم للأشخاص فى علاقات محددة ومصاغة نظاميا ، ثم يتحرك الى استخدامه متغيرا يساعد على الفهم والتفسير حينما يؤكد أن الوظيفة الاجتماعية لاى نسق هى اسهامه فى استمرارية واستترارية البناء وليس علاقته بالحاجات البيلوجية للأفراد . وانه لفهم نسق كالنسق القرابى فانه من الضرورى ان نجرى تحليلا له بالنظر الى البناء الاجتماعى والوظيفة الاجتماعية (Radcliffe - Brown, 1960, P, 44)

اذن فابناء الاجتماعى عند رادكليف براون يشكل متغيرا مستقلا وان وحدات هذا البناء هى انساقة أو أجزاؤه تعد متغايرات تابعة يكمن سبب وجودها الرئيسى فى انها ذات اسهام وظيفى فى الوجود المستمر والمستقر لهذا

البناء ، ويؤكد بيرسى كوهين ان اسلوب رادكليف فى التفسير يتسق منطقيا مع اعتبارة البناء الاجتماعى كمتغير مستقل ، ففى تفسيره لعلاقات التنكيت ، نجد ان راد كليف براون لايؤكد ببساطة على خاصيتين أو اكثر يتوجدان معا فى الحياة الاجتماعية ، ولكنه كان يؤكد على تفسير لماذا أن أحدهما يوجد ، ثم يؤكد أن المجتمعات تصوغ نظاميا علاقات التنكيت لان هناك توترا بين مبدأين أو اكثر فى البناء الاجتماعى (Cohn, 1968, P, 44) ، وان من شـــأن هذا الميكانيزم تصريف أو تنظيم هذا التوتر .

فاذا كان البناء الاجتماعى هو المتغير المستقل الذى يحتـــــاج الى دعـــم كافة التغايرات التابعة تلك التى تعد وحداته المكونة ، فان هناك مجموعة من الشروط الضرورية التى تحافظ ــ فى حالة توفرها ــ على البنـــاء الاجتماعى فى حالة من الفاعلية ، والاستمرارية والاستقرار . وبهذا الصدد نجـــد أن رادكليف براون يطرح شروطا ثلاثة يرى ضرورة توفرها .
(Radcliffe - Brown, 1952, PP, 44 - 45)

أول هذه الشروط ضرورة هو توفر درجة معينة من الاتساق بـــــين الأجـــزاء المكونة للنسق الاجتماعى ، بمعنى انه اذا ما أردنا للمجتمع أن يبقى ، فانه من الضرورى توفر حد أدنى من التضامن بين أعضائه ، وفى هذه الحالة فان وظيفة الظواهر الاجتماعية اما أن تخلق أو تدعم هذا الاتحاد أو التضامن بين الجماعات أو أن تدعم النظم التى توفر هذا الشرط . اما الشرط الثـــانى فيوجب ضرورة توفر حد أدنى من الاتساق فى العلاقات بين الأجزاء المكونة للنسق الاجتماعى .. بمعنى ضرورة تحديد الواجبات والحقوق بطـــريقة تؤدى الى تصريف الصراعات قبل أن تتمكن هذه الاخيرة من تحطيم البنـــاء ، ويؤكد الشرط الثالث على ان البناء الاجتماعى ليس فى حاجة الى الاستقرار أو التحدد والاتساق فقط وانما هو فى حاجة الى الاستمرار أيضا ، بمعنى أن كل مجتمع ، أو كل نموذج لمجتمع تسوده خصائص بنائية رئيســـية ، وينبغى أن تتوفر الممارسات التى يؤدى اسهامها الى دعم هذه الخصائص البنائية .

وبعد ان يحدد رادكليف البناء الاجتماعى ، طبيعته ومكوناته ، وتفاعلاته نجده يتخذ من هذا البناء نظرية مفسرة ، بمعنى أنه يستخدم البناء الاجتماعى

كمبدأ يفسر كافة الظواهر الواقعية ، فهو يؤكد انه اذا ما حاولنا تفسير وجود أى من مظاهر النسق ، فاننا يمكننا أن نتساءل عن كيف تسهم فى فاعلية هذا النسق .

وهذا معناه أن نتحدث عن وظيفته الاجتماعية ، وحينما ننجح فى اكتشاف وظيفة أى عادة ، أعنى الدور الذى تلعبه فى فاعلية النسق الذى تنتمى اليه ، فاننا بذلك نصل الى فهم أو تفسير لها يختلف أو يستقل عن أى تفسير تاريخى لها ، ذلك الذى يركز اساسا على كيف اتت الى الوجود (Radcliffe - Brown, 1960, P, 3) ونختار من تحليلاته وتفسيراته العديدة مثالين ، يستند فيهما الى المبدأ البنائى .

ويتعلق أول هذه الامثلة بتفسيره لعلاقات التنكيت ، اذ يوضح انه فى حالة قيام نباءات جديدة فان وسائل تحديد وضبط الصراع يجب أن توجد ذلك أن الزواج يخلق موقفا بنائيا جديدا تكون امكانيات الصراع كامنة فيه . اذ يكون هناك اتحاد بين زوج وزوجة يتبعان عائلات ما زالت منفصلة وان هاتين العائلتين ترتبطان فقط مع بعضهما بواسطة العائلة الجديدة والمنفصلة عنهما ويصبح هذا الانفصال بين الجماعتين مع الحاجة الى تأكيد ودعم علاقات الصداقة بينهما هى التى تشكل أساس العلاقات بين اعضائهما .

وبذلك تصبح علاقات التنكيت نوعا من الصداقة المعبر عنها بمظهر عدائى ، ذلك لانها تحتوى على نوع من القذف المتبادل ، الذى قد يعبر عن عداء فى مواطن اخرى ، الا انه فيما يتعلق بعلاقات التنكيت فان القذف المتبادل لا يؤخذ على انه عداء ولكن يرد عليه بمثله فقط . فالانفصال الاجتماعى للرجل عن أقارب زوجته يظهر رمزيا فى العداء الظاهر ، المحكوم بواسطة العرف ، وتبدو الصداقة فى الاستعداد لتقبل هذا العداء الظاهرى أو القذف ليس على انه جريمة ، ويطبق رادكليف براون نفس هذا التفسير على علاقات بنائية ليس لها صلة بالزواج ، كعلاقات التنكيت بين الشخص وجده أو بين ابن الاخت وخاله . (Ibid, P, 27).

اما المثال الثانى الذى نورده فهو تلك المقاومة التى قد تبديها العروس واهلها عند الزواج ، فبينما يفسرها التطوريون على أنها بقايا لنظام خطف

الزوجة ، نجد أن التفسير البنائى لها يؤكد مبدأ أن الزواج بمراحله المختلفة عملية نامية متطورة تكتمل بمولد الطفل الاول ، اذيصبح ذلك دلالة على اتحاد الزوجين ومن ثم يتبعه اتحاد العائلات التى خرج منها الزوجان .

وهو يفسر ذلك بأن الزواج عبارة عن كسر أو تعديل للعلاقات بين العروس وأهل قرابتها ، يلاحظ ذلك ، كما فى معظم المجتمعات الافريقية حينما تترك المرأة عند الزواج أهلها وتذهب لتعيش مع زوجها وعائلته وبذلك تعانى عائلتها من خسارة ؛ ومن الخطأ الفاحش أن نعتقد أن الخسارة خسارة اقتصادية ولكنها خسارة شخص كان عضوا فى الجماعة ، وكسر وانتهاك لوحدة هذه الجماعة . مثل هذا المظهر فى الزواج يعطى تعبيرا رمزيا فى العداء الظاهرى بين الكيانين القرابيين فى احتفال الزواج ، أو بالتظاهر بأخذ العروس بالقوة ( أو مايسمى بخطف العروس ) حيث تظهر العروس واهلها نوعا من المقاومة عند أخذها . (Ibid, P, 49) ثم يعطى مقالا واقعيا فى باسوتولاند أو على الاقل بعض اجزائها . اذ نجد انه فى يوم الزواج المحدد تسوق جماعة العريس قطيع الماشية — الذى يشكل مهر العروس — نحو منزلها . وحيثما يقترب قطيع الماشية ، فان نساء جماعة العروس يتجمعن فى مقدمة مدخل حظيرة الماشية ، وبينما تحاول جماعة العريس سوق الماشية فى الحظيرة فان النساء بالصراخ والعصى يسقنها بعيدا وبذلك تتبعثر الماشية فى انحاء الحقل ، وتحاول جماعة العريس جمعها ثانية ، وتبذل محاولة ثانية لادخالها فى الحظيرة . وتستمر هذه العملية عدة مرات حتى يتمكن اهل العريس من ادخال الماشية فى الحظيرة . حينئذ تظهر نساء العروس مشهدا من المقاومة عند دخول الماشية التى سوف يكون نتيجته خسارة العروس ، ويصبح التفسير الملائم لمثل هذه العادات فى كونها تعبيرات رمزية لادراك التغير البنائى الذى يسببه الزواج ، بل وينظر الى مهر الزواج فى هذه الحالة على انه دية أوتعويض بواسطة العريس لاهل العروس نظير فقدهم لابنتهم . (Ibid, P, 50) .

**بذلك يعنى رادكليف براون أن النسق أو البناء الاجتماعى لدية القدرة التلقائية على طرح الميكانيزمات التى تنظم تفاعله وتحفظ عليه فاعليته وبذلك تصبح أكثر التفسيرات كفاءة تلك التى تحاول البحث فى سبب وجود ظاهرة معينة عن طريق توضيح الدور الذى تلعبه فى تساند أو وحدة واستمرارية البناء الاجتماعى واستقراريته .**

**رابعا : مقولات التطور الوظيفى عند رادكليف :**

يصبح منطقيا ــ استنادا الموضوع هذه الدراسة ــ بعد ان أوضحنا المحاور المعرفية ، وكذا طبيعة وخصائص الموقف النظرى والمنهجى لرادكليف براون ، أن نوضح المقولات الرئيسية أو القضايا التى تشكل فى تماسكها وترابطها المنطقى أساس تصوره النظرى ، هذا التصور النظرى الذى يعد أساسا تجريدا للواقع من وجهة نظر معينة ، بحيث يصور هذا التجريد خصائص هذا الواقع ، وتفاعلاته ، وما هى أهم وحداته ، وكيفية التفاعل والفاعلية بين هذه الوحدات .

ويتجلى لنا من استطلاع كتابات رادكليف نفسه ، أو الكتابات التى تناولت أعمال رادكليف براون أن هناك تركيزا على مقولات رئيسية تشكل فى مجموعها تصور متماسكا للواقع كنسق له ترتيب خاص لمتغيراته ، وله تفاعلاته ذات الطبيعة المعينة أيضا .

**أ ــ النسق وقضية التكامل البنائى**

يؤكد ايفانز بريتشارد انه حينما يتكلم رادكليف براون عن التكامل الاجتماعى فانه يفترض أن ( وظيفة الثقافة ككل هى ربط افراد الكائنات البشرية وحيدهم فى ابنية اجتماعية تتمتع بدرجة معينة من الثبات والاستقرار أى فى انساق ثابته تتألف من جماعات وزمر تحدد علاقة هؤلاء الأفراد بعضهم ببعض وتنظيمها كما تسمح بالتكيف الخارجى مع البيئة الفيزيقية ، وبالتكيف الداخلى بين الأفراد او الجماعات التى تؤلف هذه الانساق حتى يتسنى قيام حياة اجتماعية متماسكة . واعتقد أن هذا الافتراض يعتبر احدى المسلمات الأولية فى كل دراسة عملية موضوعية للثقافة او للمجتمع الانسانى ) ( ايفانز بريتشارد . مرجع سابق . ص ٨٩ ) .

والحق انه الى جانب أن مقولة التكامل هذه ، وردت فى الفكر النظرى الوظيفى السابق على رادكليف براون ، وبخاصة عند اميل دوركيم فى دراسته للانتحار وكذا تقسيم العمل الاجتماعى ، والأشكال الاساسية للحياة الدينية فان واقع المجتمعات البدائية قد دعم هذه الرؤية عنده ، ذلك لانه كان واقعا لمجتمعات غير متغيرة ، تفتقد الوعى التاريخى نتيجة للاستقرار النسبى

لانساقها الاجتماعية البسيطة ، اذ ان ما يميز هـذه المجتمعات البسيطة أن النظم والعقائد والرموز تتداخل للغاية ، بحيث انها تشكل نمطا كليا مثل هـذا التداخل يشجع ويدعم الاعتقاد فى كلية هذا النسق ، وعلى أن هذا النسق هو حقيقة لازمانية دائمة ، يعتمد كل جزء فيها على بقية الأجزاء .

. (Cohen, Op, cit, PP, 44 - 45)

ويوضح التحليل الداخلى لمضمون هذه المقولة أن هنـاك ميكانيزمات أساسية تعمل على أن تتواجد أجزاء هذا الكل فى وجود متكيف . وثانيـا أن تواجد هذه الاجزاء ، لابد أن يكون تواجدا معيا ، وظيفيا معتمدا ، بحيث يؤدى كل جزء من هذه الاجزاء وظيفته فى هذا الوجود المعى الكلى ، وثالثا ، أن هناك ميكانيزمات يطرحها النسق تلقائيا ، ليواجه بها اى قصور فى الآداء الوظيفى ، على حساب الوحدات ومن ثم يصرف بها أوينظم أية صراعات داخلية قد تقوم فى البناء الاجتماعى بين هذه الأجزاء المكونة .

رينبثق اهتمام رادكليف براون بالتكيف كطبيعة تميز تفـاعل واسـهام مكونات البناء الاجتماعى من تصورة العضوى للبناء ، اذ هو ضمن العلمـاء الاجتماعيين الذين يبرز الفرض العضوى فى تصورهم النظرى على مايؤكـد دون مارتندال . (Martindale, Op, cit, P, 460) .

والتكيف عملية يحافظ بها الكائن العضـوى على بقـائه ، ويعنى ذلك استمرار وجوده الحى وهذا يتأتى اذا أدى أو أسهم كل جزء بنصيبه فى الحياة الاجتماعية لهذا الكائن العضوى . هذه العملية — الاسهام والآداء المعى — هى التى أطلق عليها هربرت سبنسر بالتعاون ، يعنى ذلك ان الحياة الاجتماعية والتكيف الاجتماعى يتضمن موافقة وملاءمة وتكيف سلوك الكائنات العضوية بمفردها وفقا لمتطلبات العملية التى تشكل أساس استمرار الحياة الاجتماعيه .

فأساس الحيـاة الاجتماعية عنـد رادكليف براون اذن ، ذات طابـع تكيفى ، الا ان النظرة الفاحصة لهذه الحياة الاجتماعية ، تستطيـع أن تميز وجودا نسقيا داخليا ووجودا خارجيا ، وبناء على تواجد جمع من التحديدات النسقية الداخلية والخارجية كان علينا أن نميز بين ثلاثة أنواع من التكيف ، أولها مانسميه بالتكيف الأيكلوجى ، وهو ضرورة تكيف الحياة الاجتماعية مع

النســـــق القرابى يمثل المجال الذى تنجز فيه كثير من المناشط الاجتماعية ، ذلك لان الحصر السلالى الأحادى يجعل من الممكن أن نحدد جماعاته لهـــا قدر من الأستمرار ليشمل ما هو ابعد من الحيـــاة الفردية والأســـرية ا اذ تتواجد مناشط اجتماعية لاحصر لها تنجز بواسطة جماعات العمل المشترك وعلى ذلك فأينما نجد أن العلاقات القرابية هى المصدر الأساسى للتماسك الأجتماعى ـــ كما هو الحال فى كثير من الشعوب البدائية ـــ فان جماعات العمل المشترك القرابية تصبح المظهر الاكثر اهمية فى البناء الاجتماعى .

وعلى ذلك ، فان الجماعة القرابية المشتركة فى العمل ، سواء كانت البطن او البطن الفرعية ، أم البدنة ، هى التى تتحكم فى الارض ، ســـواء كان ذلك للصيد او للرعى ، أو للزراعة ، وهى أيضا التى تباشر الأنتقـــام اذا ما قتل أحد اعضائها ، أو تطلب وتتسلم ديته ـــ وفى نطاق الدين ، فان الجماعة القرابية ، عادة ما تكون عقيدتها ، سواء كانت هذه العقيدة تركز على عبادة اسلافها أو ترتبط بمكان أو موضع مقدس . وبذلك يتطلب البناء الأجتماعى المستمر تجمعا للافراد فى جماعات منفصلة ومتميزة ، كل لها وحدتها وتضامنها الخاص بها ، ويصبح على كل فرد أن ينتمى لاى مجموعة فى أى شريحة ، والمثال الواضح لذلك هو الأنقسام المعاصر للعالم الى امم ، أما فى الانساق القرابية ، فان قرابة النسب ، لا يمكن ان تـــكون اساسا لهذا المجتمع القرابى ، الذى يصبح ممكنا فقط باستخدام مبدأ التسلسل الأحادى القرابى ولقد كان هذا فى الحقيقة واضحـــا ، بالرغـــم من الذكاء الذى بذله بعض الكتاب فى غير محله ، وفى محاولتهم التخمين أو التعرف الظنى علـــى أصـــــل البطون (Iid, P, 43) وهنـــا نجـــد أن رادكليف براون يتتبســـــع الوظيفة التكاملية للقرابة ، فهى أساس تنظيمات العمل فى هذه المجتمعات ، وهى أساس كافة التعاملات الأجتماعية ، وكذا أساس التحدد الذى تمارسه أى جماعة بنائية لذاتها ، وهى أيضا لها صلة بالوجود الدينى سواء كانت الديانة ديانة توتمية ، أو كانت عبادة الأســـلاف . هذا بالاضافة الى العرض الوافر والمسبب الذى عرضه رادكليف لدور العلاقات القرابية ، ومبادىء التصنيف القرابى فى الحفاظ على الوجود البنائى بصـــورة متماسكة ومتداخلة ومتـــكاملة .

ثم يؤكد رادكليف براون ان الانساق القرابية لها مبادئها العديدة التى تعمل على تحقيق التكامل الاجتماعى وان اختيار اى منها وابرازه انما يمثل وجهة نظر القائم بالتحليل او الدراسة ، فهو يؤكد ان أداء النسق القرابى لوظيفة أم لا انما يعتمد على الاسلوب الذى فسر به ، ذلك بالضبط مثل المهندس الذى يختار ايا من المبادىء البنائية لتصميم بنايته ، ذلك يحدث أيضا بأسلوب اقل ارادية ، حينما نجد عددا معينا ومحددا من المبادىء البنائية تستخدم فى تفسير النسق القرابى ... وتعتمد طبيعة البناء على اختيار اى من هذه المبادىء والربط بينها وحينئذ ، فالتحليل البنائى للنسق القرابى يجب ان يتم بالنظر الى المبادىء البنائية ومدى ملاءمتها (Ibid, P, 83)

اما المثال الثانى الذى نعرض له فهو الوظيفة التكاملية للدين كما عرض لها رادكليف براون ، وهو يتأثر فى تأكيد هذه الوظيفة التكاملية للدين بأميل دوركيم ودراساته عن دور المعتقدات الدينية فى المجتمعات الاسترالية تلك الدراسات التى تمت بمساعدة كل من هنرى هيوبرت .. ومارسل موس حيث أكد دوركيم أن نظريته تؤكد أن الشعائر الدينية انما هى تعبير عن وحدة المجتمع وان وظيفتها الرئيسية انها تعيد خلق المجتمع أو النظام الاجتماعى عن طريق اعادة تأكيد وتقوية العواطف التى تعتمد عليها الوحدة الاجتماعية ، ومن ثم النظام الاجتماعى ذاته (Radcliffe - Brown, 1952, P, 156) وهو فى تناوله للدين ينزع عنه كل صفة مقدسة ، وينظر اليه باعتباره مجموعة من الشعائر ، حيث تمنح هذه الشعائر التعبير المنظم عن بعض المشاعر والعواطف البشرية ، وذلك للابقاء عليها حية ونشطة ذلك لان قوة سيطرة هذه العواطف على سلوك الافراد يجعل من الممكن وجود استمرار الحياة الاجتماعية المنظمة (Ibid, P, 160) فالشعائر الدينية تمثل بما ترتبط به من عواطف تحكم السلوك فى النسق ، وبذلك فان وظيفتها الرئيسية هى ضبط السلوك والحفاظ على النظام الاجتماعى طالما أنها تنظم وتحسن المشاعر البشرية . بل اننا نوافق على ما يقوله تلميذ كونفشيوس هسن تزو Hsun Tzu ( عن ان شعائر الاضحيات هى التعبيرات عن ميول الانسان العاطفية ، فهى تمثل الغيرية والاخلاص والحب والاهتمام ) (Ibid, P, 159)

ولأهمية هذا الدور التكاملى للدين فى علاقته بالبنـــاء الاجتماعى ، فانه لابد أن يكون فى حالة تلاؤم وتواؤم دائم مع هذا البناء يختلف ويتغير باختلافه وتغيراته ، بل انه قد يسبب هذه الاختلافات والتغييرات . فالامة المحاربة التى تعتدى او يعتدى عليها ، تلزمها عاطفة قوية من الوطنية وشعورا قوميا كامل النمو ، مدعما أو مؤكدا بواسطة الدين ، فأطفال اسرائيل حينما كانوا يغزون ارض كنعـــان تحت قيـــادة جـــوزها Joshua كانـــــوا ملهمين بواســـطة الدين الذى لقبـــهم أيـــاه موبى Moses والتى تركز على الخيمة المقدسة التى اتخذ منها اليهود هيكلا نقالا Holy Tabernacle والشعائر المرتبطة بها ... بل انه فى تأكيده لدور الدين يؤكد أن الشعب الالمانى كان فى تقربه من الله طلبا للنصر ليس اقل حرارة فى ذلك من الامم المعادية .
. (Ibid, P, 161)

وليس اقل دلالة على أهمية الدين فى حفظ التكامل الاجتماعى ما يؤكده رادكليف براون على لسان فوستال دى كولانج من ان انهيار النســـق الاجتماعى فى الماضى والحاضر فى بعض المجتمعات كان سببه انهيار عبادة الاسلاف بل أن تحطم تكامل البناء الاجتماعى قد سار جنبا الى جنب مع انحلال عقيدة عبادة الاسلاف فى بعض المجتمعات الافريقية ، بسبب تأثير غزو الثقـــافة الاوربية ، وما فعلته بعثات التبشير المسيحى ، الذى كان من نتائجة اضعاف العواطف التى كانت تربط بعض الافراد ببدناتهم الاساسية (Ibid, P, 164) .

ثم يطرح رادكليف‌براون رؤية أخرى لطبيعة الدور التكاملى للدين فى البناء الاجتماعى ، ذلك لان أى بناء اجتماعى يحتوى على جماعات قرابية منعزلة كل منه تعبد توتما يعد جزءا من الطبيعة ، اذ يعبد بعضها توتم الطفل لطلبهم انجاب الاطفـــال ، والبعض الاخـــر يعبد الكـــانجارو لطلبهم دعم ووفرة الكانجارو ، بينما يعبد فريق ثالث المطر لحاجتهم الى المطر وباجتماع هـــذه الجماعات وعباداتها ، انما نعنى تصورا معينا للنظام الطبيعى للعالم ككل ومحاولاتهم للتوسل طقوسيا من اجل فاعلية هذا النظام واستمراره عن طريق افعال وممارسات هذه الجماعات العديدة والمختلفة . (Ibid, P, 167) .

ثم يصور رادكليف براون ذلك التداخل الرائع بين الدين والقرابة فى

آدائها للوظيفة التكاملية فى البناء الاجتماعى ، فيؤكد أن التوتمية اذا كانت تعطى صفة التحدد والتميز للجماعات المحلية ، وانها عن طريق الديانات تجعلها تعبد كل النظام الطبيعى الذى هو انعكاس لحاجات ومتطلبات بنائهم الاجتماعى فان التنظيم القرابى يدمج كل هذه الوحدات المنعزلة ، ومن ثم يدمج ظواهر الطبيعة فى بعضها البعض ، فالشخص فى المجتمع الاسترالى مثلا له جماعته الابوية الخاصة ، الا أن تنسيق حياته الاجتماعية يتكون أساسا من مجموعه من القواعد الخاصة بالسلوك تجاه انواع مختلفة من الاقارب . فمثلا نجد أن الرجل يدخل فى علاقة قوية للغاية مع جماعة أمه المحلية ، وفى قبائل كثيرة فى علاقة قوية للغاية بمركزه التوتمى المقدس ، وبذلك فهو يؤكد ان البناء الاجتماعى لهؤلاء الناس يعتمد على امرين ، اولا نسق الجماعات المحلية بتواتمها الخاصة ، وايضا نسق القرابة اساس التنظيم العائلى
. (Ibid, P, 168 - 169)

نأتى بعد ذلك للجانب او المظهر الاخير من مظاهر صياغة التكامل فى النسق الاجتماعى وهو ذلك المظهر الذى يؤكد على منطقية ان يطرح النسق ـ تلقائيا ـ لميكانزمات خاصة وملائمة يصرف بها مواضع التوتر أو الصراع أو ينظمها ، بحيث لا يؤدى تراكمها الى تحطيم البناء الاجتماعى وانهياره . ذلك لانه اذا كانت عملية التكيف كما اشرنا تشكل الميكانيزم النسقى الذى يمارسه ليخلق به حالة من التكيف بين الاجزاء المكونة للنسق ، وانة اذا ما استمرت كافة الاجزاء تؤدى اسهامها الوظيفى فى هذا الكل فان البناء سوف يستمر وجوده الحيوى المتفاعل فى حالة من الوحدة والاتساق الوظيفيين وتصبح هذه حالة سوية من التكامل ، وهى الحالة الاصل للوجود النسقى ، لكن قد يقع فى البناء ما يستدعى طلب فاعليه ميكانيزمات التكيف ، أو قد تستجد اجزاء فى البناء ذات اسهام وظيفى ، او تتوقف اخرى عن الاداء ، او يخنار النسق وحدات اكثر كفاءة فى آدائها الوظيفى من وحدات سابقة ، ذلك كله ينعكس تأثيره على البناء القائم فيمر بحالة من الاهتزاز او الصراع والتوتر فى بعض من مواطنه ، بذلك يصبح الصراع حالة عارضة لابد من تجاوزها .

ويؤكد هذه النظرة مارفن هاريس حينما يؤكد اننا لايمكن أن نبرىء

البنائيين الوظيفيين من ادراكهم لامكانية وقوع صراع وانقسام داخلى ، فأميل دوركيم قد ادرك بصورة كاملة تواجد مثل هذه الظواهر ، ووجد فيها امراضا باثولوجية تطرح تأثيرها على النسق الاجتماعى ، وبالرغم من ان راد كليف براون له موقف من مسألة الباثولوجيا الاجتماعية الدوركيمية ، الا انه ولا أى من تلاميذه كان على وعى بوجود صراع حاد ولاتصريف له . ذلك لانهم لم يكونوا على استعداد للموافقة على ان مثل هذا الصراع يعد جانبا رئيسيا فى الوجود البشرى (Harris, Op, cit, P, 516) . والحق أن مسألة الصراع هذه فى البرنامج البنائى لراد كليف براون ، مرتبط بالتغيرات التطورية المرتبطه بعملية النمو البنائى ومن هنا كان لزوميا ان يطرح البناء عديدا من الميكانيزمات لتجاوز حالة الصراع هذه ، فهو يؤكد انه فى عملية بناء الابنية الاجتماعية فان عديدا من الوسائل يجب ان تظهر لتجنب وتحديد وانهاء الصراعات او السيطرة عليها . (Radcliffe - Brown, 1960, P, 57)

ونضرب مثالا لذلك بعملية الزواج واثرها فى البناء الاجتماعى ، فنحن نعرف ان الزواج يمثل خلقا لموقف جديد ، مما يعطى امكانية ظهور كثير من الصراعات التى على النسق ان يطرح ميكانيزمات لاستيعابها : فالزوجة تنتقل الى اهل زوجها وتصبح بذلك عضوا غريبا بينهم او جزءا داخل بناء علاقاتهم ، ومن هنا فان ذلك الموقف يولد نوعا من التوتر ، يتجاوزه البناء بميكانيزمين ، الاول انه يطرح اسما جديدا على هذه القادمة من جماعة غريبة ، بحيث يخلق هذا الاسم المخلوع عليها من الزوج هوية جديدة ويغفل هويتها القديمة ذلك من ناحية الجماعة ، أما من جهة الزوجة ، فهى تظل تعطى نساء الجماعة الجديدة برجالها الخدمات والهدايا ، حتى ميلاد الطفل الاول الى ان تستوعب وتعتبر عضوا داخل جماعتها الجديدة . (Ibid, P, 58) .

أما الجانب الثانى فهو علاقة الزوج بأهل زوجته ، ذلك لانه من جماعة وهى من جماعة اخرى ، والجماعتان منفصلتان ، الا أن اتصالا قد حدث كان أساسه الزواج بين عضوين من هاتين الجماعتين المنفصلتين ، هذا الموقف البنائى الجديد يشكل تربة ملائمة لتولد توترات وصراعات ، ومن هنا نجد أن البناء الاجتماعى يطرح تلقائيا ميكانيزما ، لتجنب حالة الصراع والتوتر هذا

الميكانيزم هو علاقات التجنب أو المحاشاة والتنكيت . الذى يمارسها الزوج مع أهل زوجته . وعادة ما تكون علاقة التنكيت مع من هم فى شريحتة الجيلية ، اذيقذفهم الزوج بالسباب والتقليس حتى تبدو انها تعبر عن عداء مظهرى ، الا أن الجانب الاخر لا يأخذها على انها جريمة وانما قد يرد بمثلها أيضـــا ، ذلك تفريج للتوتر الناشىء عن موقف بنائى جديد (Radcliffe - Brown, 1960, P, 57 and 1952, P, 95) اما التجنب فيـــكون عادة لاهل الزوجة من الاجيال الاكبر كالاب والام ، وذلك لان الاحتكاك بين الزوج وبينهما قد يولد صراعا خاصة الحماة التى كانت اكثر التصاقا بالزوجة قبل زواجهما . ومن هنا فان البناء الاجتماعى يطرح ميكانيزم التجنب ، ليخلق مسافة بين الاشخاص الذين قد يولد اتصالهم صراعا ، ويخف هذا التجنب وينتهى تماما بعد أن يستقر الزواج أو تلد الزوجة الطفل الاول اذ يعد ذلك شاهدا على حدوث حالـــة التلاؤم فى البنـــاء . (Ibid, PP, 58, 59) .

يبقى بعد ذلك ان نناقش مسألة التكامل هذه من منطلق ايدلوجى كما حاول بعض الكتاب تصويرها كاتهام ضد الاتجاه الوظيفى ، ففى رأيهم ان التأكيد الوظيفى وخاصة ذلك الذى اجراه رادكليف براون على التكامل الكامل والاستقرار والاستمرارية ، والانسجام ، والاتساق الداخلى ، جعل الكثيرين يستنتجون ان الموقف الوظيفى يؤكد على وجوب بقاء النسق مسمرا وقتا طويلا ومتكاملا وظيفيا ، وان هذه الحالة تعرف بالحالة المثالية للتكيف لانها تقيم على انها حالة جيدة ، ويجب ان لا يجرى أى تغير فى البنـــاء بعد ذلك . (Buckley, 1957, P, 248) وللرد على هذا الاتهام نؤكد ان رادكليف براون لم يؤكد على ذلك التكامل الابدى ، فلقد قال بالتكيف الدائم نظرا لان هناك تغيرات دائمة فهو أما تكيف تال دائما لاعادة ترتيب مستمرة يجريها البناء للأجزاء تحقيقا لحالة من التكامل بين هذه الاجزاء ، هذا التكامل لايرفض أى تجديد أو تغيير وانما يطلبه مادام يمثل حاجة بنائية ، وانما مايؤكد عليه النسق أن تخدم حالة التجديد والتغير هذه حالة تكامل للنسق ، والا انتهى الامر الى حالة من الفوضى والتعثر للعناصر ينتهى معها ذلك الوجود النسقى من أساسه .

**٢ ـ الاسهام الوظيفى طلبا للوحـــدة الوظيفية الشاملة :**

يقسم رادكليف براون قضايا البناء الاجتماعى الى ثلاثة أنـــواع ، تلك

المتعلقة بقضايا المورفولوجيا ، أو الشكل البنائى ، وهى تحدد ذلك الترتيب الاستاتيكى لعناصر البناء الاجتماعى ، أما النوع الثانى من القضايا فهى تلك المتعلقة بالفسيولوجيا الاجتماعية وهى تلك التى تؤكد على دراسة عمليـة الاسهام والاداء الوظيفى الذى يشكل الوجود الحى المتفاعل لهذا الكل ، أما النوع الثالث ، فهى قضايا التطور والنمو ، يواجهها النسق حينما يكتشـف تلقائيا انه لابد من ضرورة اجراء تغيير فى احد عناصره ، اما تغييرا بنائيا أو وظيفيا ، محققا بذلك حالة من الصحة الاجتماعية ومتجاوزا حالة الاعتلال .

واصطلاح الاداء الوظيفى اصطلاح شابه كثير من الفوضى ، وبدلا من استخدامة ، وفقا لما يؤكد رادكليف براون ، للمساعدة فى توضيح الفروق واقامة التمييزات كما هو الحال فى المصطلحات العلمية ، نجد استخدامه الآن يؤدى الى الخلط بين ماكان يتطلب التمييز ـــ فغالبا ما تستخدم كلمة ( وظيفة ) بدلا من الالفاظ الاكثر شيوعا مثل (فائدة)أو (غرض)؛أو (معنى)وفىرأىرادكليف براون انه منالاقربالىالعقلوالىالعلم أنتتكلم فعلا عنفائدة الفأسأو عصاه بدلا من ان تستعمل كلمة وظيفة لكل هذه الامور المختلفة ، ولقـد كانت كلمة ( الوظيفة ) من الاصطلاحات الفنية النافعة فى الفسيولوجيا ، فاذا استخدمناها بطريقة مماثلة لاستخدامها فى الفسيولوجيا فقد تصبح اداة صالحة جدا للتعبير عن أحد المفهومات العامة فى العلم الاجتماعى ، واستطيع أن أعـرف الوظيفة الاجتماعية ـــ بالطريقة التى تردد استخدامها والتى اتبـع فيها دوركيـم وبعضالعلماء الآخرين ـــ بأنها علاقة النشاط المقننإجتماعيا أو طريقةالتفكير بالبناء الاجتماعى الذى تساعد على وجوده واستمراره ( رادكليفبراون،مرجع سابق ، ص ١٤ ) وهو هنا يربط الوظيفة بالبناء الاجتماعى على غرار أميل دوركيم وليس على غرار برنسلا مالينوفسكى ، بل ان هذا الربط بين الوظيفة والبناء هو الذى ولد هذا العنوان لهذا الاتجاه المسمى بالوظيفى البنائى ـــ حيث يؤكد رادكليف براون على ان الوظيفة هى الاسهام الذى يؤدية النظام فى دعـم البنـــاء . (Harris, Op, cit, P, 515) .

لكننا اذا قلنا ان وظيفة نظام ما هى الاسهام الذى يؤديه فى هذا البناء ، فان هذا قد يستوجب منا ان نحدد كيف نحدد وظيفة نشاط ما اولا ، وثانيا هل تظل هذه الوظيفة وهذا النشاط ذات لزومية دائمة بالنسبةله بحيثنصبح اذا

اكدنا على ذلك داعين الى نوع من السكون أو الاستقرار الخامل الذى لايبيح اى تكيف والظروف المحيطة أو التى قد تتولد من داخل النسق .

ويجيب رادكليف براون على السؤال الاول بأن دراسة وظيفة اية وحدة اجتماعية قد تتم بأساليب عدة . اما الاسلوب الاول فقد يتساءل الباحث الانثروبولوجى عن سبب ظاهرة ما ، ويطرح هذا التساؤل على الاخباريين الذين قد يعطونه تفسيرات مختلفة لهذا السبب ، وقد لا يشكل ذلك تحديدا موضوعيا للوظيفة الاجتماعية للظاهرة . الان المعلومات التى يدلى بها هؤلاء الاخباريون تعد معطيات هامة للباحث الانثروبولوجى ، وتسقط فى خطأ فادح اذا اعتقدنا ان هذا يشكل اساس التفسير الوظيفى للظاهرة أما الاسلوب الثانى وهو خاطىء أيضا ، اذ قد يحاول الباحث بناء على معرفته بالطبيعة البشرية ودوافعها ان يخمن وظيفة هذه الظاهرة . وهناك أسلوب آخر يحاول الباحث به اكتشاف معنى الظاهرة عند الناس عن طريق الكشف عن التعبير الرمزى لها ، الا أن هذا قد يرتبط بالتخمين بشكل ما أو بآخر (Radcliffe - Brown - 1952, P, 143) اما الاسلوب الصحيح للبحث عن وظيفة الظاهرة ، فهو معرفة آثارها النفسية والاجتماعية . والآثار النفسية للظاهرة يمكن ملاحظتها بسهولة عند منجزى هذه الظاهرة . فالشخص المشترك فى طقس شعائرى ما عادة يجد نفسه منجذبا لتحقيق أشباع عاطفى محدد من هذا الاشتراك وهو ما يسمى بالغرض الظاهرى او الوظيفة النفسية اما الوظيفة الاجتماعية فهى تلك الآثار الثانوية التى قد لاتكون مقصودة من المشتركين فى الظاهرة أنفسهم ، ولكى نكشف عن هذه الوظيفة الاجتماعية ، فان علينا أن نوضح ان البناء الاجتماعى يرتبط بطريقة ما بهذه الافكار الشعائرية الكونية وان الحفاظ على استمرارية البناء يعتمد على الحفاظ عليه حيا ، اى بالتعبير المطرد عنه فى الشعائر والاسطورة . (Ibid, PP, 144 - 145) .

ويسند راد كليف براون الى الوظيفة الاجتماعية للنظام أو الوحدة سبب واصل قيام هذه الوحدة أو النظام ، وهو لايقصد بالاصل او السبب أن نبحث تاريخيا فى أصل هذا النظام ، وانما يجب ان نبحث عن الاصل الاجتماعى ، فأى نظام لابد لوجوده توافر شروط معينة ، ومتى كانت هذه الشروط ضرورية لقيام

نظام أو مجموعةمن النظم، فانها بذلك تصبح الاصل الاجتماعى له (Ibid, P, 43) وتقوم هـذه الشروط الضرورية التى تستوجب قيام أو ضرورة اداء وظيفى معين ، لتحقيق درجة معينة من الاتساق الوظيفى ، وهى تلك الحالة التى لايوجد فيها صـراع داخل البناء الاجتماعى ، فاذا ماوجد توتر أو صراع فان البناء الاجتمـاعى يطرح حلا أو تصريفـا له (Ibid, P, 44) اذن فأصـل النظام يكمن فى حاجة لدى البناء لقيام اسهام وظيفى معين يمثل اشباعا له ، الا أن رادكليف براون كان يبتعد دائما عن استخدام لفظ الحاجات البنائية الذى استخدمه دوركيم ويستبدله بلفظ الشروط الضرورية للوجود (Martindale, Op, cit, P, 456) ويعتبر الاداء الوظيفى اشباعا لهـذه الحـاجة أو لاى مـن هـذه الشروطالضرورية للوجود .

مثل هذا التصور للوظيفة على انها شرط او ضرورة للوجود البنائى ، يعود بنا الى تلك المماثلة العضـوية التى يستقى منها رادكليف براونمعنى الوظيفة ، لكى تشير الى ( حياة الكائن العضوى .. مفهومه على انهـا اداء وظيفى لبنائه ، ومن خلال استمرارية هذا الأداء للوظيفة ، فان ذلك يدعـم استمرارية البناء ، فاذا ما نظرنا الى أى جزء متكرر ، فان وظيفته هى الدور الذى يلعبه فى ، أو المساهمة التى يؤديها لحياة الكائن العضوى ككل ) . (Ibid, P, 457) .

فاذا كان الشرط الضرورى لوجود نظام أو وحدة ما هى حاجة بنائيـة يكون من وظيفة هذا الجزء أو النظام اشباعها ، فاننا لابد وان نسـلم بنتيجة منطقية مترتبة تصبح بدورها احدى المسلمات الهامة فى المنظور الوظيفى عند رادكليف براون ، وهى مسلمة الوحدة الوظيفية . اذ انه وفقا لما تؤكده نظرة رادكليف براون فى هذا الصدد أن النسق الاجتماعى ـ ( كل البناء الاجتماعى للمجتمع بالاضافة الى جمع الاعراف الاجتماعية ، التى يبدو فيها هذا البنـاء والتى يعتمد عليها تحقيقا لوجوده المستمر ) ـ لدية نوع معين من الوحدة ، تلك التى قد نطلق عليها الوحدة الوظيفية. والتى قد نحددها على انها الحالة التى تعمل فيها كل اجزاء النسق الاجتماعى مع بعضها بدرجة عالية من الانسجام والاتساق الداخلى ، بدون توليد أية صراعات دائمة لايمكن تصريفها أو حتى تنظيمهـا (Radcliffe - Brown, 1952, P, 181)

ويطرح رادكليف براون شكه فى قضية الوحـــدة الوظيفية هذه ، فهـــو يؤكد أن هذه الفكرة مجرد افتراض ، وهى كأى افتراض يستحـــق الفحـــص بالاختبار المنتظم بالحقائق (Ibid, P, 182)

فاذا كان رادكليف براون قد نقل فكرة الوحدة الوظيفية التى يجب أن تسود حالة التفاعل فى الكائن العضوى الاجتماعى من نطاق الكائن العضوى البيلوجى ، فان هذا الاخير احيانا ما يواجه بحالات مرضية تقلل من قدرته على الاداء الوظيفـــى الـــكفء (Ibid, P, 182) ذلك لان الكائن البيلوجى معرضـــــا للاصابة بالامراض ، والاعتلال والموت ، أما فيما يتعلق بامكانية أن يعانى البناء الاجتماعى من أى من هذه الحالات ، فانا قد نرى رايا نخالف فيه اميل دوركيم فلقد ميز اغريق القرن الخامس قبل الميلاد بين ظروف الصحة الحسنة والصحة المعتلة فيما يتعلق بالمجتمع . ثم جاء اميل دوركيم فى القرن التـــاسع عشر واراد ان يرسى الاساس لباثولوجيا اجتماعية ، اذ حاول أن يوضح أن الزيادة فى نسبة الانتحار فى كثير من البلاد خلال فترة معينة من القرن التاسع عشر انما هى اشارة أو رمز للاعتلال أو بتعبيره رمز لحالة الانومى الاجتماعية الا انه ليس هناك من يؤكد أن دوركيم قد نجح فيما اراد .

فالمجتمع قد يصاب بالاعتلال ، هذا الاعتلال الذى قد يســـود علاقاته نتيجة لعدم الاتساق الوظيفى الذى يظهر نتيجة لمواجهة النسق صراعا لايوجد له حلا أو تصريفا ... وهو حينئذ لايموت ، وانما يشكل استجابة له بأن يغير من نموذجه البنائى أو أن يبتلع كجزء متكامل فى بناء مجتمع أكبر ، ومن ثم فانه لايمكننا أن نعرف الاعتلال على انه الفوضى أو سوء الاضطراب للمناشط العادية للنموذج البنائـــى (Ibid, PP, 182 - 183) ذلك لانه ليس هناك نسق اجتماعى يحقق على طول المدى اتساقا كاملا ، ولهذا السبب فأن كل نســـق لابد أن يخضع دائما للتغير ، وان أى درجة من عدم الكفاءة فى الآداء الوظيفى بالنسبة للنســـق الاجتمـــاعى تميـــل لان تستدعى التغـــير (Ibid, PP, 43 - 44) ذلك تحقيقا لترتيب جديد للعناصر ، أو لخلق جديد للاداء الوظيفى الاكثر كفاءة واشباعا للشروط البنائية للنسق المتزامن . وبذلك يجيب على التساؤل الثانى الذى طرحناه حول لزومية الوحدة أو الوظيفية، بل اننا نجده يطرح تصورا مرنا

فى هذا الصدد حين يؤكد أن نفس العرف الاجتماعى فى مجتمعين قد ينجز وظيفتين مختلفتين فى كلا هذين المجتمعين (Ibid, P, 184)

فاذا كانت هذه طبيعة وخصائص الآداء الوظيفى فى المنظور الرادكليف براونى ، فانه يحق لنا أن نتساءل ما هو اتجاه هذا الآداء الوظيفى ؟ هل هو اتجاه نحو اشباع حاجات فردية بيلوجية ، أو هو علاقات تبادل بين متغايرات متساوية من حيث الاستقلال أو التبعية ، أو هو اتجاه من مجموعة من المتغايرات التابعة نحو متغير مستقل. الحق ان التصور الاخير هو الاقرب الى وجهة نظر رادكليف براون الذى يصور البناء الاجتماعى على انه الوحدة الرئيسية أو المتغاير المستقل ، وما عداه من وحداته المكونة فهى عبارة عن متغايرات تابعة أو معتمدة ذلك لانها اما أن تكون نتيجة لهذا البناء ، أو موجودة للاسهام وظيفيا بما يدعم الوجود الحى والمستمر والمتماسك لهذا البناء .فهو يؤكد السبب المعقول لاى نظام أو عادة انما يكون فى وظيفة الاجتماعية (Radcliffe - Brown, 1960, P, 62) وفى موضع اخر يؤكد اننا لكى نفهم النسق القرابى فانه من الضرورى تحليله بالنظر الى البناء والوظيفة الاجتماعية ... وان الوظيفة الاجتماعية لأى سمة فى النسق هى علاقتها بالبناء واستمراريته واستقراره وليس علاقتها بالحاجات البيلوجية للأفراد (Ibid, P, 82) .. وان التحليل البنائى للنسق القرابى يجب حينئذ أن يجرى بالنظر الى المبادىء البنائية وملاءمتها . (Ibid, P, 83) .

فاذا ما تتبعنا كافة التفسيرات التى طرحها رادكليف براون لوجدنا انه دائما ما كان يتناول أية وحدة بالتحليل بالنظر الى البناء الاجتماعى ، فهو يؤكد ان وظيفة الامتثال الجيلى من الصغار للكبار تهيئة المناخ للاستمرار البنائى عن طريق نقل التقليد الذى تدعمه سلطة الكبار (Radcliffe - Brown, 1952, P, 96) وأن وظيفة علاقات التنكيت بين الاجداد والاحفاد ، أو بين الانا وأخ الأم أو بين الانا واخوات الزوجة فى نفس الجيل ، وكذا علاقات التجنب والمحاشاة مع أصهاره وآباء زوجته انما هى تعبير عن حالة تفاعل بنائى يسودها نوع من الاتصال الانفصال المعى بين الوحدات القرابية من أجل تقليل الصراعات العدائية التى قد تحطم البناء الاجتماعى Radcliffe - Brown, 1960, PP, 28,

(26, 27, 58 وان هذه الوظائف يحتاجها البناء لتصريف صراعاته وتحقيق الوحدة والتماسك والاتساق بين أجزائه. هذا بالاضافة الى وظيفة اباحة الزواج بالاخوات وتفضيله أو تحريمه بالنسبة للبناء ، ذلك لانه يؤدى وظيفة ما فى حالة تحريمه أو اباحته فى بناءات مختلفة ، ذلك يتضح من مقارنة وظيفة تفضيل الزواج بالاخوات بين نسقى مجتمعى اللوزى والزولو فى أفريقيا (Ibid, PP, 64, 64 - 65) كما صورها لنا رادكليف براون .

## ٣ ــ البناء الاجتماعى بين قضايا التوازن والصراع

نعرف ان هناك كثيرا من الانتقادات التى وجهت الى الاتجاه الوظيفى تلك التى تركز على ان هذا الاتجاه لم ينجح فى معالجة قضايا الصراع والتغير بصورة جادة ومقنعة ، ويمكن رد هذه الانتقادات الى سببين :

الاول : هو عدم الادراك المتكامل لطبيعة النسق الاجتماعى ، وما هى العمليات أو الحالات التى يجب أن يخضع لها هذا النسق لتحفظ عليه وجوده الحى المدعم . سبب هذا الادراك التأثر ببعض الافكار الراديكالية ، ذلك التأثر الذى فشل فى التمييز بين ما هو أيديولوجى وما هو علمى فى النظرية السوسيولوجية ويكمن السبب الثانى فى عدم اجراء الدراسة المتعلقة للاتجاه الوظيفى ، مما أدى الى انطلاق هذه الانتقادات من ادراك غير متعمق للفكر الوظيفى .

فالاتجاه الوظيفى وفقا لما يؤكد روبرت ميرتون ليس الا نظرية ومنهجا تحليليا ، اتهم أحيانا بالتحيز الراديكالى بقدر ما اتهم بالتحيز المحافظ ، ولقد كان منبع هذا الاتهام هو شخصية القائم بالتحليل أو مستخدم المنهج، ذلك لانه هو الذى يدخل كثيرا من التقييمات الضمنية .
(Buckley, Op, cit, P, 248)

اذ يؤكد هذا الاتجاه فى جانبه المنهجى على البناء الاجتماعى ، كمقولة تجرد عن الواقع ليمكن عن طريقها تفسير هذا الواقع ، بمعنى ان هناك تصورا مثاليا للبناء الاجتماعى ، وخصائصه وحاجاته ، وميكانيزماته ، وعملياته ، وانه يستعان بهذا التصور المثالى فى دراسة الواقع ، واكتشاف

أى انحراف عن هذا التصور المثالى وميكانيزمات تجاوزة ، يؤكد ذلك وجهة نظر رادكليف براون فى نسق النظـــرية حينما يؤكد أن هذا النسق يتكون من مجموعة من المعايير والاعراف وانماط السلوك بين الاقارب . وان الانحراف عن ما هو معيار له اهميته ، ذلك يمدنا بمقياس رئيسى عن حالة التوازن أو اللا توازن النسبية فى النسق ، فحينما يكون هناك اختلاف ملحوظ بين السلوك المثالى أو المتوقع والتصرف الواقعى لكثير من الافراد ، فان هذا يعد دلالة على عدم التوازن . وعلى سبيل المثال حينما تكون هنـــاك قاعدة تؤكد ان الابن يجب ان يطيع أباه ، وان هناك فى الواقع امثلة كثيرة ملحوظة عن عدم الطاعة . فانه يكون هناك عدم توازن . الا انه قد يكون هنـــاك ايضـــا افتقاد للتوازن حينما يكون هناك عـــدم اتفاق ملحوظ بين اعضـــاء المجتمع حول صياغة قواعد السلوك ، أو عدم اتفاق يتعلق باصدار حكـــم حول سلوك اشخاص معينين .. (Radcliffe-Brown, 1960, PP, 10 - 11) .

وهو هناك يؤكد على وجود الانحراف أو حالة عدم التوازن فى الواقـــع البنائى وان ما يساعد على اكتشافها هو ذلك التجريد البنائى الذى اصبح نظرية مفسرة . ولا يتضمن هذا الاتجاه عند راد كليف براون أية ادانة للانحراف أو الصراع . ذلك لانه يؤكد فى موقف آخر أن التوترات والضغوط وامكانيات الصراع تتواجد فى اى نسق من الحقوق والواجبات . ذلك ان ضغط الالتزامات الاجتماعية يشعر به غالبا على انه مرهق ، بالاضافة الى أن هناك ميلا سيئا عند الكائنـــات البشرية فى بعض الظروف للاصرار على حقوقها بدلا من الحرص على انجاز واجباتها ، الا انه واضح أن النسق المرتكز على الجمع الناتج من المحتمل غالبا أن يكشف عن توترات وصراعات عن نسق آخر تتحدد فيه العلاقات القانونية أو الشرعية تحديدا واضحا وموافقا عليه اجتماعيا (Ibid, P, 80) الا ان النسق الذى قد تتواجد فيه بعض الصراعات من أجل أن يمارس تفاعله بحد أدنى من الفاعلية فانه يجب أن يوفر تكاملا للأشخاص من خلال مجموعة من العلاقات يستطيعون الدخول بداخلها ويتعاونون بدون تولد صراعات كثيرة وخطيرة . اذ أن التوترات وامكانيات الصراع تتواجد فى كل الانساق .. وان الانساق لكى تعمل بكفاءة ، فانها يجب أن تطرح وسائل تحييدها او تصريفها والسيطرة عليها . (Ibid, P, 83)

يعنى ذلك بداءة تواجد رؤية للصراع والانحراف تشكل جزء هامـــا من تصور رادكليف براون ، الا انه طلبا للوجود النسقى المدعم والمتكامل ،فان هذا الصراع لا بد وأن ينهى بأية وسيلة ، اعنى أن ينظم أو يصرف أو يسيطر عليه ، لايعنى ذلك أن رادكليف براون لايجد مكانا فى تصوره النسقى لظاهرة الصراع ولكنه مع ادراكه فانه أكثر اهتماما بتوازن النسق . وهو لايفكر أن يكون للصراع دورا ، ذلك أنه قد يؤدى أو يقود الى تغيير النسق .. فهو يؤكد أن الحالة المثالية للوجود النسقى هى تلك الحالة التى تعمل فيها كل أجزاء النسق مع بعضها بدرجة كافية من الانسجام والاتساق الداخلى ، أعنى بدون انتاج أية صراعات دائمة ، تلك الصراعات التى لا يمكن تصريفها أو تنظيمها (Buckley, Op, cit, P, 248) الا أن هذه الحالة قد تتحطم ولاتتواجد وتسود بدلا منها حالة من عدم الاتساق الوظيفى . تلك التى توجد حينما ينتج بين عنصرين فى النسق الاجتماعى صراع لايجد له حلا الا بنوع من تغير النسق ذاته .. فالاتساق أمر نسبى وليس هناك نسق يحقق اتساقا دائما ، ولذلك ، فان كل نسق لابد وأن يخضـــع دائمـــا للتغير (Radcliffe - Brown, 1952 - PP, 43 - 44)

**بذلك يعطى رادكليف براون ــ على عكس تصور اللاوظيفيين ــ للصراع دورا رئيسيا فى قيادة تفاعل النسق الاجتماعى حتى تغيير النسق كلية، وهو يختلف عن هؤلاء اللاوظيفيين فى أنه لايوافق كبنائى وظيفى على أن تصبح عمليات التغير والصراع هى العمليات الرئيسية والتى تحكم كافة تفاعلاته دائما ، بحيث لايمتلك النســق استقرارا يباشــر أثنــاءه عملياته البنائية والوظيفيــة الاخرى .**

يؤكد ذلك مارفن هاريس بقوله انه من الخطأ أن نصور الوظيفيين ــ البنائيين على أنهم أبرياء من الايمان بحدوث الانشقاق والصراع الداخلى ، ابتداء من دوركيم الذى رآها باثولوجيا اجتماعية ، وحتى رادكليف براون الذى لم ير فيهـــا باثولوجيا اجتماعية ، وانما راها موجودة ، ولم يوافق هو وتلاميذه على النظر اليها كجانب رئيسى وعادى فى الوجود الانسانى ... فهم لايؤمنـــون بوجود صراعات حادة لا يمكن أن تحل . (Harris, Op, cit, P, 510)

فرادكليف يتأرجح بين رؤيا مستقبلة للصراع ابتداء من ضرورة تصريف الصراعات التى قد تتواجد فى النسق وحتى أعطاء هذا الصراع دورا فى تغيير النسق اذا ما مثل هذا التغير ضرورة بنائية لهذا النسق ذلك لان الحالة الاصلية التى يجب أن يكون عليها النسق هى حالة أن يكون كيانا متكاملا ، يملك اتساقا

بنائيا بين عناصره الداخلية وتساوقا وظيفيا لهذه العناصر فاذا ما اهتز الاتساق أو التساوق بفعل عدم كفاءة في الاداء الوظيفي لاي من العناصر فان هذا سوف يكون انحرافا عن الحالة العادية للنسق ، تلك الحالة التي سوف تكون مدخلا لقيام توترات وربما صراعات داخلية بين اجزاء النسق ، ربما ادى ارتفاع درجاتها الى تغيير النسق ذاته .

وللحفاظ على حالة التكامل او التوازن هذه يطرح النسق كثيرا من الميكانيزمات التي يحافظ بها على هذه الحالة في مواجهة اية توترات أو صراعات قد تقوم مع اعتباره التغير كميكانيزم نهائي ـــ يلجأ اليه النسق تلقائيا حينما تفشل كافة الميكانيزمات الاخرى في العمل .

ولتوضيح طبيعة هذه الميكانيزمات سوف نعرض على سبيل المثـــال لا الحصر لمثالين صورهما رادكليف براون من خلال دراساته للمجتمعات البدائية أما الميكانيزم الاول فهو استناد البناء الاجتماعي للمجتمع أو الجماعة في ترتيب أشخاصه ومراكزه ورسم علاقاته اما على أساس مبدأ الانحدار أو التسلسل الابوي ، أو الاموي ، كمبدأ يحقق به الوحدة والتوازن ويتجنب به الصراع . أما الميكانيزم الثاني فهو يتعلق بعلاقات التنكيت والتجنب البنائية ، واثر عملها كميكانيزم بنائي يحافظ به النسق على تكامله ووحدته ويتجنب بهما حدوث اية صراعات حـــادة .

وقبل أن نعرض للمبدأ الأول كميكانيزم نرى من الضروري أن نوضـــح العناصر الأساسية الكامنة في العلاقات الاجتماعية كما يراها راد كليف براون ، فهو يرى انه من الممكن ان نميز في العلاقة الاجتماعية اكثر من عنصر ، وأول ما يمكن أن نتعرف عليه كعنصر أساسي في العلاقة هو العاطفة الشخصية أو ما يعرف بالعنصر العاطفي اذ يؤكد ... انه لمن الضروري ان نتذكر ان هذا العنصر العاطفي في العلاقة بين الاقارب عن طريق القرابة أو الزواج مختلف في المجتمعات المختلفة .

أما العنصر الثاني في العلاقة ، وهو سائد يمكن أن نشير اليه باللفظ آداب المعاشرة . وهو يشير الى القواعد السائدة بالنسبة للسلوك الخارجي . وما تفعله هذه القواعد هي أنها تحدد افعالا أو تجنبات رمزية معينة تلك التي تعبر عن جانب معين هام في العلاقة بين شخصين .

أما العنصر الثالث فى العلاقة فهو ذلك الذى يعرف بالعنصر الشرعى أو المتعلق بالحقوق والالتزامات ، ونقصد به تلك العلاقات التى يمكن أن تحدد بالنظر الى الحقوق والواجبات . فحيثما يكون هناك واجب ، تكون هناك قاعدة توجب على الشخص أن يتصرف بطريقة معينة . والواجب قد يكون ايجابيا ، يحدد الافعال التى يجب أن تنجز ، أو سلبيا ، يفرض تجنب أفعال معينة . فنحن قد نتحدث عن انجاز واجب ايجابى ومراعاة واجب سلبى .. والاشارة الى الواجبات والحقوق هى دائما ببساطة اشارة الى العلاقة الاجتماعية وقواعد السلوك المرتبطة بها حينئذ . (Radcliffe - Brown, 1960, P, 11) .

وبناء على هذا التصنيف للعناصر الاساسية فى العلاقات الاجتماعية تقوم البناءات الاجتماعية المرتكزة على المبدأ الاموى أو الابوى ، مع التأكيد التلقائى على حالة من التوازن تسود توزع هذه العلاقات بين هذين المبدأين فاذا كانت العناصر العاطفية فى ناحية وجدنا العناصر الشرعية الملزمة فى ناحية اخرى .

اذ يؤكد رادكليف براون أن المقابلة بين الاب وحق الام هى فى الحقيقة مقابلة بين طرازين من الزواج . فالمرأة بالمولد تعد عضوا فى جماعة الرحم Sibling حيث الروابط الاجتماعية القوية توحدها مع اخوانها واخواتها . وبالزواج فهى تدخل فى نوع ما من العلاقة مع زوجها ، ولكى يتوفر بناء مستقر فانه يجب أن يكون هناك نوع من التكيف او التوفيق النظامى للولاء او المطالب الممكنة المتصارعة كتلك التى بين زوج المرأة وبين اخوانها واخواتها وهناك حلان ممكنان متعارضان ومتطرفان ، وهما المتعلقان بحق الاب وحق الام ، هذا الى جانب عدد لا حصر له من التركيبات .

أما الحل الاول لهذه الصراعات تحقيقا للاستقرار فهو ذلك المعطى بواسطة حق الام حيث تعتبر فيه جماعة الرحم هى الوحدة الاكثر أهمية ودو ما فى البناء الاجتماعى . اذ يظل الاخوة والاخوات متحدين ، مشاركين فى ثروتهم ، ويعيشون مع بعضهم فى جماعة منزلية واحدة . وفى الزواج تحتفظ الجماعة بملكية كاملة للمرأة ، ولايكتسب زوجها حقوقا شرعية على الاطلاق أو حدا أدنى طفيفا للغاية ، ولكن فى نفس الوقت فان على الزوج واجبات قليلة تجاه الزوجة أو جماعتها . وتستقر حقوق ملكية الاطفال حينئذ فى يد المرأة واخوانها واخواتها . ويصبح هؤلاء الاشخاص هم الاشخاص الذين يجب على الطفل

أن يذهب اليهم طلبا لأى نوع من المساعدة أو الراحة ، وهم المسئولون عن ممارسة الضبط والسيطرة والتربية على الطفل (Ibid, P, 77) الا أنه فى مقابل ذلك نجد ان العنصر العاطفى سائد فى جانب الاب ، وهو عنصر يسود العلاقات خاصة فى حالة غياب العلاقات ذات الالتزامات الشرعية ، ووفقا لما يؤكده رادكليف براون من أنه يوجد بالتأكيد دليلا على امثلة صريحة للتعاطف الدائم بين الرجل وزوجته واطفاله تحت نسق حق الام . اذ يفصل النسق بين العلاقات الشرعية تلك التى تكون موقوفة على البدنه ، وبين العلاقات الشخصية الخاصة بالتعاطف والتقدير والاتصال . (Ibid, P, 77) .

اما الحل المقدم بواسطة حق الاب فهو عكس السابق تماما . حيث ملكية الام ، ومن ثم ملكية الاطفال الذين من جسدها تنتقل بالزواج الى الزوج واقاربه اذ يكتسب الزوج الرومانى السلطة على زوجته واطفالها . أما اقارب الام ، اخوانها واخوتها لا يكون لهم فى هذا النوع من الزواج اية حقوق على الاطفال ، الذين لايكون لهم بدورهم عليهم حقوق . اذ تفصل الروابط الشرعية بين المرأة ورحمها بزواجها . الا أن هذا يترك المجال مفتوحا لامكانية قيام علاقات التعاطف الشخصى وانه لما يميز الانساق التى تقترب من حق الاب ، ان أخوة وأخوات الأم ، يتوقع منهم ان يطرحوا رعاية عاطفية على اطفالها ، وصداقة ودية . وان اخوات الطفل يتوقع ان يمارسوا تعاطفا تجاه أخوالهم وخالاتهم . وهنا ايضا نلاحظ الفصل بين العلاقات الشرعية وعلاقات الاتصال والتعاطف الشخصى (Ibid, P, 78)

يتضح اذن من مفارقة البناء الاجتماعى وقسمته للعناصر البنائية المكونة للعلاقات الاجتماعية بين الكيانين القرابيين ، انه يخص كلا منهما بعناصر ذات طبيعة معينة ، ذلك حفاظ ضمنى على درجة معينة من التشابك للعلاقات القرابية ، التى تكتسب اهميتها من تكاملها القائم على التمايز بين طبيعتها ذلك التكامل الذى يسهم فى تحقيق التوازن والاستقرار فى النسق ، حيث قد يؤدى غياب هذا التوزيع لعناصر العلاقة الى خلق حالة تمهد لقيام كثير من النزاعات والصراعات . اما الميكانيزم الذى يطرحه النسق حفاظا على استقرارة وتكاملة فهو علاقات التنكيت وسلوك التجنب ، هذه العلاقات وانماط السلوك تحدث حينما يقع زواج جديد بالنسق . فاذا ما حدث ، فاننا نواجه

بموقف بنائى جديد بعد الزواج محملا بامكانات الصراع فبينما يكون هناك اتحاد بين الزوج والزوجة فأن العـــائلتين ( بمعنى كيانى القرابة ) مازالا منفصلين . ويتصلا فقط ببعضهما بارتباطهما المنفصل مع العائلة الجـــديدة التى ظهرت الى الوجود . ويكون انفصال الجماعتين الى جانب الحاجة الى الحفاظ على دعم علاقات الصداقة بينهما هما المسئولان عن الامداد بأساس للعلاقات الشخصيـــــــــة (Ibid, P, 57) وفى عملية الصياغـــة البنائيـــــة الجديدة هذه نجد أن البناء الاجتماعى يطرح من الوسائل ما يمكنه من الحد والسيطرة على مواضع الصراعات اذا قامت أو تصريفها .

وتعبر علاقات التنكيت فىمضمونها عنموقفيسوده الاتصال والانفصال بين جماعتين بينهمـــا علاقات قرابية حديثة ، فهـــى نوع من التنـــدر الذى يهتم باظهار عدم الاحترام من اعضاء جماعة لاخرى . الا ان عدم الاحترام هذا لا يصل الى العمق الذى يولد عداء بين الجماعتين (Radcliffe - Brown, 1960, P, 59) . فعلاقات التنكيت اذن فى شكلها المتبادل يمكن أن تعدنوعا من الصداقة المعبر عنها بمظهر عدائى ، فسلوك السب والاهانة المتبادل قد يكون ببساطة عداءفى مواقف اخرى . الا ان الاقارب المشتركين فى التنكيت مطلوب منهم لايعتبروا ذلك اهانة او جريمة ، ولكن عليهم ان يستجيبوا بنفس الاسلوب . فالانفصال الاجتماعى للرجل واقاربه يمثل رمزيا باظار العداء المحكوم بواسطة العرف ، أما الصداقة فتتضح من الاستعداد لعدم اعتبار ذلك اهانة ، مثل هذا التفسير يلائم الامثلة الاخرى فى علاقات التنكيت المتبادلة . تلك التى لا صلة لها بالزواج (Radcliffe - Brown, 1952, P, 95)

من الامثلة على ذلك علاقات التنكيت بين الحفيد والجد . اذ تعبر هذه العلاقة عن انفصال واتصال اجتماعى ، فالانفصال يعبر عن تلك الحـــالة التى يكون فيها الاجداد خارجين من عملية الحياة ذاتها بالموت أو الانعـــزال بينما الاحفاد وهم اطفال يكونون فى بداية دخولهم لعمليات الحياة هذه ، أمـــا الاتصال فيتأكد عن طريق الروابط القرابية بينهما ، هذا الى جانب أن دورة الحياة ذاتها تضع بطريقة ما الاطفال واجدادهم فى شريحة اجتماعية واحـــدة بالنظر الى آباء الاطفال وأبناء الاجداد
(Radcliffe, Brown, 1960, P, 57 and 1952, P, 97)

وهناك أيضا علاقات التنكيت التى بين الخال وابن الاخت ، والتى بـــين الابن وزوج العمة ، فهى مع الخال ، لتوفر حالة الاتصال . والانفصال هده

أيضـــا . فحالة الاتصـــال تكمـــن فى انه فى التسلسل الابوى يكون الخال مع الطفل طرفا فى علاقة ملؤها الود والاخلاص والاحترام ، ويكون الخـــال فى هذه العلاقة عبارة عن ام ذكر ، أما الانفصال فأساســـه ان الخـــال شخص غريب وخارجى بالنسبة لجماعة الطفل ، فهو منفصل ويعامل كغريب بنوع من العداء ومن هنا يتوفر اساس علاقات التنكيت فى الانفصال والاتصال المعبر عنه بعلاقات الود والصداقة ذات العداء الظاهرى
(Radcliffe - Brown, 1952, PP, 98 - 99)

أما علاقات التنكيت مع زوج العمة ، فأساسها ان زوج العمة يكون فى موقف الجد بالنسبة للطفل ، ذلك لان الجماعة الابوية تعتبر العمة ابا انثى ، وابنها يعتبر من الجماعة الابوية ويعامل كأب ، ومن هنا فان اباه أو زوج العمة يعتبر جدا بالنسبة للأنا . وعلى ذلك تكون علاقة التنكيت واجبة لاعتبار بنائى واجتماعى أكثر من أى اعتبار آخر ، ذلك لتوفر المقاييس والمعايير التى استوجبت قيـــام هذه العلاقة (Ibid, P, 101) وقـــد تتـــواجد عـــلاقات التنكيت بين بطنين متجاورتين أو جماعتين لا تربطهما علاقات قرابية ، ذلك لان الجوار يكون اتصالا اجتماعيا اما الانفصال فهو واضح فى الانعزال المحدد لكل جماعة عن الاخرى وتجنبا للعداء الصريح بينهما الذى قد يقود الى الصراع فانه حفاظا على التوازن يطرح النسق دعما لوحدته علاقات التنكيت او حتى الاذى البسيط الذى يتم فى مناسبات معينة دون ان يعتبر جرما (Ibid, P, 111)

أما سلوك التجنب فهو أما ان يكون بين الزوجة واهل زوجهـــا أو بـــين الزوج واهل زوجته نتيجة لوجود توتر سبب بواسطة هذا الموقف البنـــائى الجديد . ويصل هذا التوتر اقصاه بين أم الزوجة والزوج ذلك لان الاولى هى الشخص الاكثر ارتباطا والتصـــاقا بالزوجة قبل الزواج . وان الصهر هـــو الشخص الذى نقلت اليه حقوق السيطرة والحقوق الجنسية على ابنتها وتصبح المسافة المحافظ على بقائها باسم العرف بين الصهر وحياته لها تأثـــير تجنب الصراع بينهما (Radcliffe-Brown, 1960, P, 58) .

ولايعنى ان علاقة التجنب والابتعاد عن الشخص هذه علاقة عدائيـــة ، بل هى ود او طلبا للود الخالص اذ يخبرنا رادكليف براون بأنه قد سأل أحد الرفاق السود لماذا يجب عليه ان يتجنب حماته ، اجاب حينئذ ، بأنا افضل اصدقائه فى العالم ، انها هى التى اعطتنى زوجتى ، ومع أن هذا قد يبـــدو

غريبا على تفكيرنا الا ان اجابة هذا الرفيق الاسود على ما يؤكد رادكليف براون كانت منطقية وملائمة فما يحطم الصداقة وينهيها هى المشـــاجرة ، وانت لا تستطيع أن تتشاجر مع شخص ليس لك معه صلة اجتماعية أو أن صلتك معه محدودة للغاية ومنظمة تقليديا (Ibid, P, 58) .

واذا ما فحصنا علاقات وسلوك التنكيت وسلوك التجنب ، لوجدنا أن نفس المبادىء تحكمهما مع تدخل مبدأ الاجيال فى حالة التجنب (Radcliffe - Brown, 1952, PP, 102 - 103) فبينما قد يتجنب الزوج اباء زوجته وما يعد أبا تصنيفيا له من أهل الزوجة ، فانه يدخل فى علاقات تنكيت مع من فى شريحته الجليلة

فعلاقات التنكيت هى اذن ميكانيزم بنائى لتجنب حالة اللاتوازن التى انتابت البناء الاجتماعى بسبب قيام ما اثار تعديلات فى هذا البناء كالزواج مثلا اذ كما يؤكد رادكليف براون أن الزواج يعد موقفا من عدم التوازن المعاصر . ففى اية جماعة صغيرة متماسكة نجد أن اى رحيل لاحد اعضائها يسبب حالة من عدم التوازن . ويعد الموت حادثة تنتج هذه النتيجة غالبا . الا أنه على مدى اقصر ، فان رحيل الابنة بالزواج هو ايضا تحطيم للتوازن داخل العائلة فضلا عن أن دخول غريب فى جماعة الاقارب هو ايضا تحطيم لتوازنها وفى قبائل النجونى فى جنوب افريقيا ، فان على العروس فى فترة الزواج الاولى أن تهب الهدايا وتؤدى الخدمات بالنسبة لنساء جماعة زوجها ، وبعد فترة من الزمن يوافق عليها كواحدة منهم . اذ أن اعادة بناء التوازن المحطم قد يستهلك حتما مدة من الزمن — طويلة أو قصيرة حسب طبيعـــة الحـــــال (Radcliffe - Brown, 1960, P, 58) هذه الفترة قد تستمر حتى ولادة الاطفال . وتصبح عادات التجنب اكثر مرونة . يتضح ذلك اذا ادركنا ان الزواج ما هو الا عملية نامية . مهما كانت التوترات ومخاطر الصراعات التى قد تتواجد بين الصهر وآبـــاء زوجته التى قد تصل الى اقصاها فى الفترة التالية للزواج مباشرة . ويصبح النجـــل والتجنب المفروض بينهما ذات اهمية وظيفية عقب الزواج مباشرة فقط . (Ibid, P, 60) .

لذلك يتضح لنا ان عملية التفاعل البنائى كان من الممكن أن تستهدف قيام الصراع بين أجزاء البناء الاجتماعى لولا طرح البناء الاجتماعى لميكانيزمات ملائمة يتجنب بها البناء هذه العمليات المحطمة ، أو ينظمها تنظيما لاتؤثر به فى البناء الاجتماعى . أما اذا قام انحراف أو صراع بين الاجزاء نتيجة لعدم الفاعلية الوظيفية لاحد أجزاء البناء المكونة ، أو لعدم وجود اتساق فى الشكل البنائى ،

فان النسق الاجتماعى ، قد يطرح التغير الاجتماعى بأبعاده الملائمة بحثا عن الاستقرار والتكامل النسقى ، وهو موضوع الفقرة التالية .

**٤ ــ التغير الاجتماعى ــ طبيعته ومداه**

ليس صحيحا مايؤكده كل من هووارد بيكر والفــن بوســكوف ، فى مناقشتها لوجهة نظر راد كليف براون من أن النسق اذا ما حقق التكامل والتوازن وحقق تكيفا مثاليا ، سواء كان ذلك بالنسبة لسعادة الفرد أو رفاهية المجتمع. فان مثل هذا الموقف يقيم ، حينئذ على أنه ( حســن ) ويجب أن لا يتغير ، وما هوكائن هو الافضل ، وان أى تغيرات بعد ذلك تعد مجلبة للاذى . (Buckley, ذلك لان الموقف الوظيفى عامة وبخاصة عند رادكليف براون (Op, cit, P, 248 يعكس هذه الرؤية المضادة لامكانية التغير فى النســق ، ولو كان الموقف الراد كليف براونى هو ما حدده بيكر، وبوسكوف لوجدنا له عذره فى أن المجتمعات التى نشأت فى أحضانها الافكار الوظيفية خاصة الجناح الانثروبولوجى كانت مجتمعات بدائية على مايؤكد بريسى كوهن تفتقد اى وعى تاريخى ، وتعتبر شروط أو ظواهر الحاضر المعاصر وتعالجها على أنها دائمة وغير متغيرة . مثل هذا الافتقاد للوعى أو الحس التاريخى كان بدوره مظهرا للاستقرار النسبى لهذه الانساق الاجتماعية البسيطة ، تلك التى لا تتغير كثيرا فى فترة أجيال قصيرة . (Cohen, Op, cit, P, 44) ولان النظرية الاجتماعية هى عبارة عن هيكل من المفاهيم ــ التى ترمز لمسميات واقعية ــ يسود فيما بينها نوع من الاتساق والترابط المنطقى وان هذه المفاهيم تجريد لواقع معين ، لكان منطقيا ان لا يتحدث الوظيفيون عن التغير الاجتماعى لان هذه الظاهرة لم تكن واردة ضمن متغيرات الواقع ، حيث انه اذا تحدث الباحث فى مجتمع مستقر عن التغير ، فانه بذلك قد يطرح وجهة نظر يوتوبية ترسم مجتمعا طوباويــا ليس له أساس فى الواقع .

ولان النظرية العلمية ليست ابنة البحث الامبريقى فقط ، وانما هى أيضا نتاج تراكم علمى قد يملى عليها ضرورة دراسة قضايا معينة . من هنــا كان اهتمام الوظيفيين بدراسة التغير الاجتماعى منبثقا اساسا من ادراكهم لضرورة وأهمية قضية التغير الاجتماعى لانه من غير المنطقى أن يستمر نسق يخضع لنوع من التكامل والتوازن الابدى الآســن خاصة ان الاتجاه التطورى قد كشف عن كثير من المراحل التى اجتازتها النماذج البنائية حتى وصلت الى حالتها المعقدة

اليوم من أصل أشكال بسيطة ، وثانيا ان هؤلاء الوظيفيين قد عاصروا الاستعمار ومؤثراته ، وكثيرا من العوامل الاخرى التى قد تستدعى التغير . ومن هنا كان عليهم أن يطوروا تصورا معينا لهذه القضية وهـــو ما حققوه فعلا .

ونؤكد أن تصورا معينا قادرا على معالجة التغير حينما يعالج نسقا تهيىء تفاعلاته لوقوع التغير الاجتماعى . وأول مايواجهنا بشأن رادكليف براون نرى أنه فى تصوره لنظرية البناء الاجتماعى يرى انها يجب أن تتناول بالمعالجـــة ثلاثة أنواع رئيسية من القضايا وهى قضايا المورفلوجيا ، وقضايا الفسيولوجيا ثم قضايا التطور والنمو وهى المتعلقة بكيفية انبثاق نماذج جديدة فى البنـــاء الاجتمـــاعى . (Radcliffe - Brown, 1952, P, 180)

يشهد على ذلك أنه أعطى قسما مميزا فى نموذجه لدراسة قضايا التغير والنمو ، تلك التى تؤدى الى ظهور أشكال جديدة من البناء الاجتماعى .

وفى ادراكه لأهمية دراسة التغير الاجتماعى ، نجده يؤكد ، انه باستخدامنا لكلمة ( نسق ) فاننا نفترض كما توحى دلالة الكلمة ان هناك وحدة معقدة أو متشابكة ، أو كل منظم وان هذا الفرض قد تلقى فعلا ، قدرا كافيـــا من اختبار الاثبات والصدق بواسطة الدراسات الانثروبولوجية ، الا أننا يجب أن نميز بين النسق المستقر الذى قد يستمر بتغيرات بسيطة نسبيا لفترة ما من الزمن والحالة غير المستقرة للمجتمع الخاضع لعملية التغير السريع . وأنه من الاول وليس الاخير نواجه بدرجة معينة من الاتساق والالتقـــاء بين الوحدات التى تشـــكل كيـــان هذا الكل (Radcliffe - Brown, 1960, P, 13) .

فهناك الى جانب ادراك ضرورة الوحدة والاتساق بين أجزاء الكل النسقى ادراك لواقعية تواجد تغيرات معينة ذات درجات متفاوتة فى حدتها ، وهو يؤكد على ضرورة فهم ظواهر التغير هذه ، ذلك الفهم الذى اذا أردناه فان علينا أن نجرى دراسة تاريخية . لاننا لكى نفعل ذلك فاننا يجب أن نعرف كل ما هو ممكن ومستطاع عن كيفية الاداء الوظيفى للنسق الذى ندرسه قبل حدوث التغيرات ، حينئذ فقط يمكننا أن نعرف شيئا ما عن أسبابها الممكنة ، ونرى أيضا شيئا ما عن نتائجها أو آثارها الحقيقية المحتملة ، وأنه فقط حينما تبدو التغـــيرات كتغيرات فى الآداء الوظيفى للنسق ، فان ذلك يمكن من فهمها . (Ibid, P, 3) .

والتغير عند رادكليف براون يتأثر الى حد كبير بالتصور العضـــوى عنده فالتغير عنده ليس له ما يبرره طالما أن النسق يعمل فى حالة من الاتساق

البنائى أعنى التكامل ، وايضا فى حالة من التساوق الوظيفى . الا انه يؤكد ان حالة الاتساق هذه قد تتحطم بنوع من الصراع لا حل له الا تغيير النسق ، وان الاتساق أمر نسبى . . . ولذلك فان كل نسق لابد وان يخضع دائما للتغير ، وان عدم الكفاءة الوظيفية بأى درجة بالنسبة للنسق الاجتماعى قد تستوجب التغير (Radcliffe-Brown, 1952, PP, 43 - 44) فمنشأ التغير اذن هو حالة من عدم الاتساق انتابت النسق فدفعته الى طرح قضية التغير لحل معضلات كامنة فيه . ويقدر حجم عدم الاتساق او الكفاءة الوظيفية . بقد ما يكون حجم التغير وطبيعته ونوعه ، من هنا فان رادكليف براون يؤكد انه من الممكن أن تتغير الصورة البنائية بالتدريج أو قد يكون التغير فجائيا الى حد ما فى احوال اخرى — كما هو الحال فى الثورات والغزو العسكرى — ومع ذلك يظل البناء متماسكا حتى فى اعنف حالات التغيرات الثورية ( رادكليف براون — مرجع سابق . ص ٦ ) .

ويشكل تصور هربرت سبنسر للتغير والتطور الاجتماعى تأثيرا له وطأته على تصور رادكليف براون ، ذلك التصور الذى يضمنه رادكليف براون فى افتراضين رئيسيين .

**أولا :** ان هناك ميلا فى الحياة العضوية وما فوق العضوية الى التشعب من اشكال بسيطة الى أشكال كثيرة منتشرة ، أو ان هناك اشكالا كثيرة من اشكال بسيطة .

**ثانيا :** انه كلما نمت هذه الاشكال تعقدت ، وان البناءات المعقدة تنبثق من البناءات البسيطة ، ثم يؤكد اننا قد نرفض كثيرا من الافكار والتأملات التى نجدها فى نظرية هربرت سبنسر تلك التى لا تؤيدها الحقائق التاريخية ونستخدمها فقط كأدوات تحليلية (Radcliffe Brown, 1952, P, 6)

ثم يضع تفرقة واضحة بين البناءات البسيطة ، والاخرى الاكثر اكتمالا وتعقدا ويبنى ذلك على تعداد الجماعة او النسق وكم العلاقات القائمة بين الاعضاء ( راكليف — براون . مرجع سابق . ص ٨ )

ولان الحالة الاساسية للنسق هى التكامل والتوازن حتى يتمكن من ممارسة كافة عملياته ومناشطه الاخرى ، فان عملية التكيف لابد وان تلعب دورا هاما فى تفاعل النسق مع أية تغيرات قد تنبثق من داخله ، أوتأتى اليه من الخارج .

فهو يؤكد ان تفوق الكائن العضوى الاجتماعى على الكائن العضوى البيلوجى يكمن فى أن الاول قادر على ممارسة عمليات التغير الاجتماعى ، ففى الكائن العضوى البيلوجى كالخنزير لايمكن أن يتغير ليصبح فرس النهر ... الا ان المجتمع على مدى تاريخه يستطيع ان ينجز تغيرا فى نموذجة البنائى بدون اى كسر أو خروج على الاستمرارية ثم يناقش دوركيم فيما يتعلق (Radcliffe - Brown, 1952, P, 181) بالاعتلال الاجتماعى والباثولوجيا الاجتماعية ، ونجده يختلف مع الموقف الدوركيمى بأنه يؤكد أن دوركيم قد أراد أن يدلل على اعتلال المجتمع . الذى رمز اليه بسيادة حالة الانومى بارتفاع نسبة الانتحار فى كثير من البلاد خلال فترة معينة من القرن التاسع عشر ، والحق اننا فى البناءات العضوية البيلوجية يمكننا أن نجد بالتحديد المحك الموضوعى الذى بواسطته نستطيع التمييز بين الصحة والمرض ... حيث المرض هو الذى يهدد الكائن العضوى بالموت ( تحلل بناءاته ) ... الا ان المجتمعات لا تموت بنفس المعنى الذى يموت به الحيوان ، ومن ثم فمن الصعب علينا ان نحدد الاعتلال على انه ذلك الذى يقود اذا لم يوقف ، الى موت المجتمع فضلا عن ان المجتمع يختلف عن الكائن العضوى من حيث انه يستطيع ان يغير من نموذجة البنائى ، أو يبتلع كجزء متكامل فى مجتمع اكبر (Ibid, P, 180) ثم يؤكد ان الكائن العضوى الذى يهاجم بواسطة مرض قاتل فانه سوف يستجيب له ، فاذا فشل فى استجابته فانه سوف يموت ، وان المجتمع الذى يرمى به فى حالة من عدم الوحدة الوظيفية أو عدم الاتساق ( حيث لهذا السبب توجد ، مؤقتا حالة الاعتلال ) ، فانه لن يموت ... وانما سوف يستمر لكى يناضل من اجل نوع من الصحة الاجتماعية ، وانه اثناء ذلك قد يغير من نموذجة البنائى (Ibid, P, 183)

فاذا تأكد لنا ان رادكليف براون قد يرى ان يكون التغير تدريجيا على غرار التفاعلات البنائية العادية ، أو يكون ثوريا يغير من شكل النموذج البنائى برمته . أعنى انه يوافق على كافة درجات التغير ، طالما انها تؤدى وظيفة معينة حتى لو كانت وظيفة عملية التغير هى تغيير الشكل البنائى ذاته بحثا عن الاتساق والتكامل والتوازن . فانه بقى أن نعرف ماهى مصادر التغير الاجتماعى عنده هل مصدر التغير الاجتماعى من الداخل أو من الخارج ، أو من ايهما معا . الحق أن استجلاء وجهة نظر رادكليف براون تكشف عن

رؤية محددة واضحة بشأن هذه القضية ، اذ يؤكد على امكانية قيام التغير بفعل عوامل أو مؤثرات من الخارج هذا بالاضافة الى امكانية ان يجرى النسق، أو البناء تغييرا بفعل عوامل أو مؤثرات داخلية، وبذلك يكون تغيرا من الداخل .

ويعنى بالتغير من الداخل أن يتسبب أحد عناصر البناء فى اجراء تعديلات فى بقية اجزاء البناء الاجتماعى . وهو يسير فى ذلك على ما ذهب اليه معظم الوضعيين من أمثال سان سيمون الذى قال ان الحقيقة الاكثر بروزا فى التاريخ هى الامتداد المستمر لمبدأ الترابط كما هو فى سلسلة العائلة والمدينة ، والامة والكنيسة ما فوق الامم ، ولقد اشتق هذه الفكرة كونت من سان سيمون وسبق سبنسر فى التوسع فيها ، وتبع دور كيم سبنسر ، وقال بالفكرة نفسها بقولة ان التيار المسيطر فى التطور الاجتماعى كان ( الاتساع أو الامتداد التقدمى للوسط الاجتماعى (Radcliffe - Brown, 1958, P, 182)

ويقاس هذا الاتساع التقدمى للوسط الاجتماعى ... بالنظر الى حجم الكثافة . المادية والكثافة الاجتماعية فالاولى يمكن قياسها عن طريق عدد الاشخاص الذين يعيشون فى منطقة واحدة مثل ميل مربع . اما الاخيرة فتتزايد دون النظر الى الكثافة المادية ، بواسطة الزيادة فى الاتصالات ثم الزيادة فى شريان التفاعلات (Ibid, P, 183) ثم يؤكد أن علماء الاجتماع قد عرفوا فى زيادة السكان واحدا من أهم عوامل التطور الاجتماعى (Ibid, P, 186)

فاذا كانت زيادة السكان وحجم التفاعل له هذه الاهمية فما هو تفسير ذلك عنده ؟ يؤكد راد كليف براون ان الاجابة تكمن فى ذلك المبدأ الذى يعرفه العلماء ( بمبدأ المشابهة أو المحاكاه ) الذى قد وسع بواسطة جاليليو منذ ٣٠٠ سنة ، ولكى نحدده مبدئيا ، نؤكد أنه بالنسبة لاى نوع من أنواع البناء ، فان هناك حدودا على حجمه . وعلى اساس ذلك لا تستطيع الطبيعة ان تنتج اشجارا ابعد من ارتفاع معين على ارضنا ، ولقد قدر جاليليو هذا الحد بحوالى ٣٠٠ قدم تقريبا ... ثم يؤكد ان زيمل على سبيل المثال كتب يقول ( ان كل زيادة كمية للمجتمع تنتج تعديلا كيفيا ومن ثم تتطلب تكيفات جديدة ، فأشكال الجماعات تعتمد على عدد من العناصر ، والبناء الملائم للجماعة له حجم معين من العضوية ، ويفقد قيمته اذا زادت هذه العضوية)

(Ibid, PP, 185 - 186) فكأنه يؤكد هنا ان الزيادة السكانية وحجم التغير الاجتماعى اذا زادت عن حد معين تعد عنصرا اساسيا فى قيادة التغير واثارته ، حيث قد يقود ذلك الى تغيير فى الشكل البنائى نفسه على نحو ما صوره لنا اميل دوركيم سابقا .

ويعطى لنا رادكليف براون مثالا امبيريقيا يوضح به كيف يتسبب كبر حجم أعضاء الجماعة فى كسر الشكل البنائى القديم لعدم ملاءمته وخلق شكل بنائى جديد أكثر استيعابا وملاءمة . وهنا يوضح كيفيؤدى كبر حجم أعضاء الوحدة القرابية الى انشطارها الى عدة وحدات تتماسك فى شكل بنائى أكثر اتساقا من الشكل القديم الذى كان ملائما لوحدة واحدة . فهو يؤكد ان جماعات القربى تميل للتزايد فى حجمها على مدى عدة اجيال ممتابعة . فالبطنقد تنمو الى جماعة تعدادها الى مئات كثيرة الا أن عضوية نفس البطن فى حالة البطون المشتته قد تصبح ذات اهمية بين الاشخاص فى اتصالهم الاجتماعى السائد والمعتاد . وتميل البدنات ايضا لان تتسع فى الحجم وفى انساق البدنات فاننا نجد اجراء معينا بواسطته يمكن للبدنة التى نمت الى حجم معين بحيث اصبحت النظم المكلفة بدعم وحدتها لا تعمل بصورة جيدة . اذ تنقسم البدنة الى اثنتين أو أكثر من البدنات المنفصلة والتى لا يزال بينها اتصال . والطريقة التى يتضح بها ذلك فى قبائل النجونى فى جنوب أفريقيا تصبح هامة فى توضيح هذه الفكرة . اذ يحدث أنه حينما ينمو حجم جماعة البدنة الى حجم كبير فان شابا قد يقرر ان يتزوج بنتا من داخل البدنة ليست على قرابة وثيقة معه . ويؤكد السكان انفسهم أن الزواج داخل البدنة يكون محطما لوحدتها طالما انها قد تخلق داخل الجماعة علاقات زواجية تلك التى لا تتلاءم تماما مع علاقات البدنة القائمة . ولسوف تكون هناك مقاومة فى البداية لهذا الزواج المقترح . الا انه اذا ما كان هناك رأى عام كان يدعمه فان البدنة يمكن أن تنقسم الى بدنتين متصلتين يصبح الزواج بينهما ممكنا .

ومثلما تغير الشكل البنائى لقبائل النجونى من الداخل ، فاننا نجد راد كليف براون يؤكد على عوامل داخلية اخرى فى اثارة التغير الاجتماعى . اذ يؤكد ان العامل الاكثر اهمية فى تطور التصور الانجليزى

الحديث عن الزواج كمن فى فكره الحب الرومانتيكى حيث قادت فكره أن الزواج يجب أن يكون اتحادا يرتكز على الحب الرومانتيكى يقود منطقيا الى أنه اذا ما وجد الزوج والزوجة وان كل منهما لا يحب الآخر ، فانه يجب أن يكون مسموحا لهما أن ينفصلا بالطلاق . والحق ان هذا ما يمارسه أهل هولبود . الا أنها تتصارع مع تنظيم الزواج بواسطة الكنيسة أو الدولة . (ثم يؤكد) أن هناك عاملاآخرغاية فى الاهمية للتغير يكمن فى المركز الاقتصادى والاجتماعى المرأة خلال القرن لتاسع عشر والعشرين . اذ قد تمتلك امرأة متزوجة ثروة خاصة بها . وهى قد تشغل عملا ليس له علاقة بحياتها العائلية ومن ثم فهى تبتعد عنها . وفى شعائر الزواج ، فان كثيرا من النساء الآن يرفضن الالتزام بطاعة أزواجهن (Ibid. P, 45) .

بل أن رادكليف براون ينظر الى عمليات الزواج ذاتها على أنها كسر وتعديلات للعلاقات البنائية داخل البناء الاجتماعى ، فهى تغيرات داخلية دائمة ، يكون من نتائجها قيام علاقات جديدة أو حقوق وواجبات جديدة على نحو ما أوضحنا من قبل (Ibid. PP, 49 — 50)

أما النوع الآخر من التغير فهو التغير من الخارج ، وهو يؤكده بالنسبة للمجتمعات الافرقية بقوله ان النسق الآن يخضع لتعديلات بسبب المؤثرات الاوربية من كافة الانواع ، الا انه مازال يحتفظ ببعض من ملامحه السابقة (Ibid. P, 79) وهو يؤكد أن دراسة التغير الاجتماعى عند المجتمعات البدائية تركز بالضرورة فى اغلب الاحيان على نوع واحد من التغير واعنى به تغير الحياة الاجتماعية بفعل تأثير أو سيطرة الغزاة أو الفاتحين الاوربيين ( رادكليف براون . مرجع سابق . ص ١٥ ) ثم ينتقد برنسلاو مالينوفسكى الذى حاول أن يصور هذا التغير على انه تغير ثقافى فقط ويؤكد أن هذه طريقة لتجنب الحقيقة والواقع . لان ما يحدث فى جنوب افريقيا مثلا ، ليس تفاعل الثقافة البريطانية وثقافة البوير وثقافة الهوتنتوت وثقافات البانتو العديدة والثقافة الهندية ، انما هو تفاعل الافراد والجماعات داخل بناء اجتماعى قائم يمر هو نفسه بعملية تغير ، ثم يطرح الحقيقة الاساسية الكائنة الآن فى افريقيا بقوله أن المجتمعات الافريقية تخضع الآن لتغيرات ثورية كنتيجة للادارة والارساليات الاوربية والعوامل الاقتصادية .. ففى الماضى كانت استقرارية النظام الاجتماعى فى

المجتمعات الافريقية تعتمد الى حـــد كبير على الانساق القرابيه اكثر من اى شيء آخـــر ، اما فى الظروف الجديدة فان الانساق الافريقية لايمكن أن تظل أو تبقى غير متأثرة وبلا شك فان التغيرات الاولى سوف تكون محطمةلنسق الالتزامات الموجود . وفى مقدور الملاحظ الانثروبولوجى أن يكشف ضغوط وتوترات جديدة . وانواع جديدة من الصراع اما مـــا هـــو المدى الـــذى سوف يذهب اليه اضطراب النظـــــام الاجتماعى القائم ، وما هو الاتجاه الذى سوف تصبح فيه اعادة البناء ممكنة . أمر لا يمكن الفصل فيـــــه فى الحاضر . فالجزاءات المطروحـــة بواســـطة الانســـاق القرابية لضبـــط السلوك أصبحت ضعيفة اذ أن بعضا من هـــذه الجزاءات على سبيل المثال دينيا ، ولا يمكن ان يستمر مع نجاح المشروعات التبشيرية . ولـــكى نقوم الامر بما قـــد وقع فى بعض اجزاء افريقيا . فان الجزاءات الجديدة . التى تعد من وسائلها رجل البوليس ، وقسيس او راعى الكنيسة قد ثبت أنها أقل فاعلية عن تلك الجزاءات التى من وسائلها الاقارب الذين يحكمون مستندين الى ســـلطة الاســـلاف (Radcliffe - Brown, 1960, PP, 84 - 85) .

تبقى بعد ذلك ملاحظة موجزها ان راد كليف براون قد اولى الجانب الدينى اهتماما فى احداث التغيير ـــ بينما لم يعامل الجانب الاقتصادى بنفس القدر ، وقد كان يجب ذلك ـــ فبينما أن هدف المستعمر الاســـاسى هـــو **هـــدف اقتصادى ومن ثم فهـــو يحـــاول تعديـــل النسق الاقتصـــــادى ومناشطة بحيث يحقق اهدافة ، فقد يستحدث وسائل اقتصادية ومشروعات ومصانع ، ومع ذلك لم يلق هذا الجانب الاقتصادى اهتمامـــــا من راد كليف براون ، فهو يؤكد فى الفصل السابق أن التغير البنائى كان نتيجـــــة لتغير النسق الدينى بما يضم من جزاءات كانت ذات فاعلية لانهـــا كانت الى جانب دينيتها لها وجهها القرابى لانها كانت عبادة الاسلاف ، اذ نراه يؤكد. اننى أستطيع ان اتحدث بتأكيد اكثر عن بعض المجتمعـــات الافريقيـــــة ، وبخاصة مجتمعات جنوب افريقيا حيث قد اضعف غزو الثقافـــة الاوربية بما فيها تعاليم المبشرين المسيحيين فى بعض الافراد والعواطف التى تربطهم ببدنتهم فانهيار تكامل البناء الاجتماعى قد سار جنبـــا الى جنب مع انحلال عقيدة.**

عبـــادة الاســـــلاف (Radcliffe, Brown, 1952, P, 164) ونتســـــاءل ، هل كان غرامة الدوركيمى هو الكامن وراء اهتمامة بهذه العواطف الجمعية والمشتركة بحيث أن هذه العواطف والمشاعر كانت تشكل اساسا يرتكز عليه البنـــاء الاجتماعى انه كان يهتم بما هـــو مشترك ويحافظ على المجتمـــع وحدته . أم أن ذلك تأكيد على موقف مضاد للماركسية وتأكيدها على الجانب الاقتصادى ، فاختار هو الموقف المضاد . الحق أننا نميل الى تصـــديـــق الافتراض الاول ، ونأخذ على راو كليف براون اهماله لآثـــــار التغيرات التى حدثت فى الجانب الاقتصادى . ذلك لان التصور البنائى الوظيفى يعطـــى امكانية اثارة التغير فى النسق لكافة العوامل حتى ولو كانت العوامـــــل الاقتصادية ـــ كمـــا تقول الماركسية ـــ وترفض رفضا مطلقـــا ذلك التأكيد الأحادى على اى من الانساق فى اثارة التغير كما حاولت الماركسية ان تفعل.